الباب الأول

الشروح .. دراسة تاريخية

تقـــــــديم : حركة الشروح

الفصل الأول : البيئة الثقافية والعلمية التى أنتجت الشروح

الفصل الثـانى : الحاجة الثقافية التى دعت إلى الشروح

الفصل الثالث : نشأة الشروح وتطورها

الشروح

تقديم:

واكبت حركة شروح الشعر الجاهلى بداية الحركة العلمية النشطة ، التى قامت حول اللغة العربية ، منذ جمعها وتدوينها ، ثم تقعيد نحوها ، وتقنين صرفها ، وروايتها وإذاعتها ، فكانت حركة الشروح جزءاً من الدراسات اللغوية التى أوجدتها الحركة العلمية ، وظلت ملازمة لها ، متأثرة بها ، تسير فى ركابها أينما سارت ، وحيثما اتجهت .

وقد ظهرت فى الشروح التى قامت على الشعر الجاهلى آثار العلماء جميعاً على اختلاف اهتماماتهم ، وتباين ثقافتهم ، ونتاج قرائحهم ، كما وضحت بصمات أيديهم ، وأثر ذوقهم وفهمهم ، وانعكس كل ذلك واضحاً على ما صنفوه وألفوه عن تراث تفسيرى .

ارتبطت الدراسات اللغوية منذ نشأتها بالدراسات الدينية ، حتى ليبدو أنهما اتحدا معاً فى النشأة ، وقد كانت الحركة التى ترمى إلى تفسير القرآن الكريم ودراسته أولى الحركات العلمية عند المسلمين ، ولا شك أنها بدأت بسيطة ، ثم ما لبثت أن قويت ونشطت ، واتسع ميدانها ، حتى شملت جميع العلوم التى عرفت قديماً . فما اتصل بالقرآن من دراسات وعلوم كان أولها ظهوراً ، وأولاها بالاهتمام ، وما ابتعد عنه كان آخرها .

وإذا كانت دراسة القرآن الكريم هى الباعث الأول على إظهار الدراسات اللغوية ، فقد كان للحديث النبوى الشريف دوره الهام فى هذا البعث ، حيث اتجهت النية كذلك إلى جمعه وترتيبه ، ودراسة غريبه . وارتبطت دراسة الحديث بدراسة القرآن ، فكانت إرهاصات كتب التفسير جزءاً من كتب الحديث ، ثم انفصل العلمان ، واتخذ كل منهما لنفسه سمة مميزة ، وإن ظلت كتب التفسير مصطبغة بمنهج المحدثين ، وأسلوبهم وطريقتهم ،

فسميت « التفسير بالمأثور » أو « تفسير الرواية »(١) إلى أن ظهرت بعد ذلك أنواع أخرى من التفاسير تعتمد على شخصية المفسر ، وثقافته واجتهاده .

كل هذه المحاولات والدراسات كانت الشرارة الأولى التى انطلقت فى الآفاق ففجرت الثورة العلمية ، وأضاءت سماء البشرية بنور العلم فى مختلف المجالات ، ووجهت الدراسات الإسلامية إهتمام العلماء الأوائل إلى الشعر الجاهلى ، بوصفه المصدر الأساسى للدراسات اللغوية ؛ لمعرفة ما جاء فى القرآن الكريم والحديث الشريف من تراكيب ومفردات وتعابير نادرة غامضة حتى على المسلمين الذين من أصل عربى ، مما استدعى تأليف معاجم لتفسير الغريب ثم ظهرت فى الوقت نفسه ضرورة مقارنة المعنى المحدد بالتفسيرات الموضوعة. ومن الطبيعى أن يلجأ القراء الذين هم أول من نطق بالتفسير إلى الأمثلة المستقاة من الشعر وبصورة خاصة — المنسوب منه إلى شعراء أواسط الجزيرة وشرقيها وبذلك بنى جسر بين لغة القرآن ، واللهجة الشعرية ، وهذا ما يفسر الاستغناء عن غرض محدود كدراسة القرآن ، إلى غرض أكثر اتساعاً تثيره مشاكل عدة اقتضتها لغة الشعر .. »(٢)

ومنذ أواخر القرن الأول وأوائل الثانى ؛ خرجت إلى الوجود ظاهرة لها قيمتها وأثرها فى نشأة وتدعيم الدراسات اللغوية ، تلك هى ظاهرة التدوين العلمى ؛ التى أسهمت فى وضع أسس معظم علوم العربية ، نقلية كانت أم

---

(١) أمين الخولى : مقالة نشأة التفسير ، دائرة المعارف الإسلامية ، ٥/٣٤٩ .

(٢) بلاشير : تاريخ الأدب العربى ١—١٢٠ ترجمة إبراهيم الكيلانى ، طبع الجامعة السورية سنة ١٩٥٦ م . ويقول بروكلمان : « إن الخلافات اللغوية بين لهجات القبائل بعضها مع بعض من جانب ، وبينها وبين لغة القرآن والشعر القديم من جانب آخر ، وكذلك حاجة العناصر غير العربية التى دخلت فى الإسلام إلى تعلم لغة الكتاب الكريم ولسان الحكومة الإسلامية من من جانب ثالث ، كل ذلك بعث المسلمين — بادىء ذى بدء — إلى الملاحظات والأنظار اللغوية » .

(تاريخ الأدب العربى ٢/١٢٨ ، ترجمة المرحوم الدكتور عبد الحليم النجار ، طبع دار المعارف بمصر ، سنة ١٩٦٨ م) .

عقلية ، فقل أن نرى علماً من العلوم الإسلامية أو اللغوية إلا وقد وجدت له أصول فى هذه الفترة . ، ونشط المسلمون فى ذلك ، وكان نشاطهم يسترعى الأنظار ، ويستخرج العجب ، وليس هناك من نشاط يشبهه إلا نشاط العرب فى فتوح البلدان ، فقد نظم العلماء أنفسهم فرقاً كفرق الجيش ، كل فرقة تغزو الجهل أو الفوضى فى ناحيتها ، حتى تخضعها لنظامها ، ففرقة للغة ، وفرقة للحديث ، وفرقة للنحو ، وهم يتسابقون فى الغزو والانتصار وتدوين العلوم وتنظيمها تسابق قبائل العرب فى الفتوح والغزوات »(١) .

وعامل آخر هام — أدى إلى قيام وتطور الدراسات اللغوية لا يتصل بالناحية الدينية ، وإنما يتصل بالناحية الاجتماعية ، ذلك أن الشعوب الداخلة فى الإسلام وهم من غير العرب ، ويتكلمون لغات متباينة ، كانوا فى أمس الحاجة إلى معرفة اللغة العربية ، لغة دينهم الجديد ، والنطق بها نطقاً سليماً .

تآزرت هذه العوامل وغيرها ، فأثمرت هذه الحصيلة الضخمة من الدراسات اللغوية . التى نحاول فى هذا البحث أن نجلى أحد وجوهها وهى « حركة الشروح التى قامت على الشعر الجاهلى » . ولقد كان لهذه الدراسات اللغوية وجوه أخرى من أبرزها — بالإضافة إلى ما ذكرت سابقاً — وضع قواعد النحو ، وتقنين اللغة ، وحركة المعاجم العربية ، وحركة ضبط اللغة من حيث الشكل والإعجام .. إلى غير ذلك من الوجوه . وقد ظهرت هذه الوجوه منذ أواخر القرن الأول الهجرى ، وواكبت حركة الشروح منذ بداية نشأتها ، وسارت موازية لها عبر السنين .

---

(١) أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ٢–١٣ ، الطبعة العاشرة .

الفصل الأول

البيئة الثقافية والعلمية التى أنتجت الشروح

نشأت الدراسات اللغوية فى العراق ، ونمت فى العراق، وتعددت مناحيها واتجاهاتها ، وتنوعت أغراضها ومجالاتها فى العراق أيضاً . فقد كان العراق أسبق الأمصار الإسلامية فى جمع اللغة ، وتدوينها ، وتقنينها ، وتقعيد النحو ، ورواية الأشعار والأخبار .

ولقد كانت هناك عوامل عدة هيأت الإقليم العراقى لأن يضطلع بهذا الدور الهام أهمها .. ما كان عليه أهله فى حضارة وثقافة ، توارثوها على مر العصور . « فلما دخل أهله فى الإسلام ، فعلوا فى العلوم العربية على قياس أممهم السابقة ، فما كان منهم إلا أن طبقوا ما عرض فى الإسلام على ما جرى عليه آباؤهم »(١) . كما أن العراق — بحكم موقعه الجغرافى — كان يزخر بالعناصر الأجنبية المختلفة التى اعتنق معظمها الإسلام ، فأحسوا حاجاتهم إلى تعلم العربية ، لغة دينهم الجديد ، ولغة الفاتحين المنتصرين ليستطيعوا المواءمة بين ماضيهم الأجنبى ، وحاضرهم الإسلامى ، ومن هنا نشأت الحاجة فى العراق إلى جمع اللغة من مصادرها الأولى ، وتدوينها ليجدوا أمامهم المادة اللغوية التى بها يتكلمون ويتعبدون ، وإلى وضع قواعد النحو التى تعينهم وتهديهم إلى صحة التعبير وسلامته ، وإلى رواية الشعر والأخبار التى تنير عقولهم ، وتهذب ألسنتهم ، وتصلهم بماضى العرب الفاتحين ، وتزودهم بما يحتاجون إلى معرفته من ذلك التراث العربى الضخم ، الذى لم يكن هناك بد من الاتصال به فى سبيل اكتساب الحس اللغوى ، والذوق الأدبى(٢) . وهذا ما يفسر لنا

---

(١) ضحى الإسلام ٢/٢٧٨ .

(٢) يوسف خليف : حياة الشعر فى الكوفة ، ص ٢٦٠ ، ط دار الكاتب العربى ، سنة ١٩٦٨ .

لماذا لم تنشأ مثل هذه الدراسات فى الحجاز ، مع أنه الموطن الأصيل للعربية .

وتعليل هذا الأمر بسيط ، ذلك أن عرب الحجاز ، يعرفون لغتهم ويتكلمون بها صحيحة عن سليقة وطبع متوارث ، حددته ظروف البيئة دون ما حاجة إلى تعلم أو دراسة ، فالعراق إذن — كان الموطن الطبيعى لهذه الدراسات اللغوية .

بيد أن مراكز العراق المختلفة — تنوعت إهتماماتها ، وتباينت مجالاتها ، وغلب على كل منها نوع معين من الدراسات ، فالبصرة أولت اهتماماً خاصاً بجمع اللغة وتدوينها ، وتقعيد النحو ، وكانت أسبق المراكز إلى ذلك ، فى حين كانت الكوفة أكثر اهتماماً وأوسع نشاطاً فى رواية الشعر والأخبار(١). وربما يرجع السبب فى تنوع الاهتمامات ، وتباين المجالات إلى أن البصرة كانت تجتذب العناصر الأجنبية ، نظراً لموقعها الجغرافى على ساحل البحر ، الأمر الذى هيأها لتكون مرفأ للسفن التجارية القادمة من مختلف بلاد العالم القديم وهذا ما جعلها دائماً مركز التقاء واستقبال لأخلاط متعددة من العناصر الأجنبية ، ومن هنا كانت الحاجة إلى تعلم اللغة العربية ، والنحو العربى أقوى فى البصرة منها فى الكوفة .

أضف إلى ذلك ما كانت تنعم به البصرة من استقرار سياسى ونفسى أبعدها بعض الشىء عن الفتن والاضطرابات ، والصراعات التى شغلت بها الكوفة ردحاً من الزمن ، وكان جزءاً لا يتجزأ من تاريخها الثائر .

أما الكوفة .. فقد كانت ثغراً من ثغور البادية ، لا تفد إليها السفن الأجنبية وإنما تفد إليها القوافل العربية ، وهذا الوضع الجغرافى للكوفة يجعلها أكثر اهتماماً برواية الشعر العربى ، وأخبار العرب من البصرة. فإذا أضفنا إلى هذا

---

(١) قال السيوطى : « ولا علم للعرب إلا فى هاتين المدينتين ، أما مدينة الرسول فلا نعلم بها إماماً فى العربية » . (أنظر المزهر ، ٢/٢٥٩ ، الطبعة الأزهرية) .

ويقول فى موضع آخر : « والذى نقل اللغة واللسان العربى من القبائل الفصيحة وأثبتها فى كتاب فصيرها علماً وصناعة هم أهل البصرة والكوفة فقط من بين أمصار العرب » ١/١٢٨ .

أن الكوفة كانت « مصر الأرستقراطية البدوية » وأن هذه الأرستقراطية البدوية ظلت مسيطرة على الحياة الاجتماعية فى الكوفة فترة طويلة من تاريخها .. وأن العصبيات القبلية لعبت دورها الكبير فى حياة المجتمع الكوفى ، استطعنا أن ندرك السر فى إهتمام الكوفة برواية الشعر والأخبار . لأنه تراث القبائل هذه التى تعتز به ، وماضيها المجيد الذى تحرص عليه ، لأنه سجل مفاخرها وكتاب أمجادها .

وهكذا نستطيع أن نقول إن البصرة كانت « مدينة العلم » فى حين كانت الكوفة « مدينة الفن » وضعت الأولى قواعد العلم العربى ، وحفظت الأخرى نماذج الفن العربى(١) . بيد أن كلتا المدينتين لم تفقد اتصالها بالأخرى ، ولم تكن معزولة عنها ، كما يقول قانون التأثير والتأثر .

وحين نتناول دراسة الحياة اللغوية فى البيئة العراقية — فإنما نقصد أن نتتبع ثلاثة من أهم مجالاتها وأوثقها صلة بحركة الشروح

الأول : مجال جمع اللغة وتدوينها .

والثانى : مجال تقعيد النحو .

والثالث : مجال رواية الأشعار والأخبار .

ومن الحق أن نذكر أن هذه المجالات الثلاثة كانت متداخلة مترابطة لم تنفصل عن بعضها إلا بعد القرن الأول(٢) . نتيجة لعوامل النشوء والارتقاء حيث أخذ كل مجال منها يستقل بذاته ، ويدور فى فلك خاص ، يتناوله بالبحث والدراسة علماء تخصصوا نسبياً له ، وكرسوا حياتهم من أجله .

---

(١) يوسف خليف : حياة الشعر فى الكوفة ، ص ٢٦٠ وما بعدها .

(٢) ضحى الإسلام ٢-٢٧٧ ، وانظر أيضا نفس المرجع ٢-٣٦١ .

المجال الأول

جمع اللغة وتدوينها

بدأ جمع اللغة — كما ذكرنا — منذ القرن الأول ، حيث وجه العلماء ركائبهم وجل إهتماماتهم إلى القبائل العربية التى اشتهرت بالفصاحة ، وسلامة اللغة ، وعرفت بمحافظتها على عربيتها ، وبعدها عن الاختلاط والفساد والتأثيرات الأجنبية — وبطبيعة الحال — كان المصدر الأول والأساسى لجمع اللغة هو البادية ، البادية العربية ، مهد العرب والعروبة ، وبيئة اللغة والشعر . ولكن هذه البادية العربية ، لم تكن كلها فى نظر العلماء واللغويين — بمنزلة واحده من النقاء والفصاحة ، وإنما كانت هناك مناطق منها ، رغب عنها اللغويون والرواة وتحرجوا أن يستقوا مادتهم الأولية منها ، خاصة تلك المناطق التى لم يكن الجنس العربى فيها خالصاً من المؤثرات الأجنبية ، ولهذا لم يعتمد اللغويون والرواة فى جمع مادتهم اللغوية على العرب الذين كانوا يعيشون فى المناطق العربية المجاورة للأقاليم الأجنبية(١) ، وإنما انحصر اهتمامهم فى منطقة بعينها ، وهى تلك المنطقة التى تمتد من غربى نجد عندما تأخذ هضبتها فى الانحدار نحو الغرب ، وبين سفوح جبال الحجاز ، عندما تأخذ فى الارتفاع مكونة تلك السلاسل الجبلية العاتية فى غربى الجزيرة . هذه المنطقة هى التى كان القدماء يطلقون عليها « عالية السافلة وسافلة العالية »(٢) .

---

(١) يقول السيوطى : « فهم لم يأخذوا عن حضرى قط ، ولا عن سكان البرارى من يسكن أطراف بلادهم لسائر الأمم الذين حولهم . فإنه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط ولا من قضاعة وغسان وأياد لمجاورتهم أهل الشام .. » .

(أنظر بقية النص فى المزهر ١–١٢٨).

(٢) قال أبو زيد : « لست أقول قالت العرب إلا إذا سمعت من هؤلاء : بكر بن هوزان وبنى كلاب وبنى هلال أو من عالية السافلة أو سافلة العالية ، وإلا لم أقل قالت العرب .. » ويصف سكانها بأنهم أفصح الناس .

(أنظر المزهر ١–٩١ ، وأنظر المرجع نفسه ٢–٣٠٠ ؛ ١–١٥٧ وما بعدها) .

فهذه المنطقة كانت المصدر الأساسى الذى استمد منه اللغويون والرواة مادتهم اللغوية ، لأنهم كانوا يرون فيها منطقة بعيدة عن كل التأثيرات الأجنبية التى يحتمل أن تفسد السليقة اللغوية العربية ، وسكانها — فى رأيهم — محافظون على لغتهم ، يتوارثون سلامتها وفصاحتها ، لم تدخل لغتهم شائبة أو عجمة ، وكانوا يطلقون عليهم « سكان الوبر » ، ويرون أن لغتهم العربية فى مجموعها تمثل عصر النقاء اللغوى ، والبداوة الأصيلة . ويستطيع الباحث أن يقرر — أن الذين عنهم نقلت اللغة العربية — وأخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم قيس وتميم وأسد(١) ثم هذيل ، وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم(٢) .

وإلى جانب هذا المصدر الأساسى « البادية » كان هناك مصدر آخر ، يستمد منه بعض اللغويين والرواة مادتهم ، فقد كان هناك جماعات كبيرة من أعراب البادية (٣) يفدون على إقليم العراق ، ليعلموا أهله اللغة العربية ، وليرووا لهم أشعار البادية وأخبارها وكان هذا العمل وسيلة من وسائل أرزاقهم التى بها يرتزقون ، ومن أشهر هؤلاء الأعراب « أبو مهدية ، وأبو طفيلة ، وأبو البيداء ، وأبو حيوة بن لقيط ، وأبو مالك عمرو بن كركرة ، وأبو دقيق الأعرابى وغيرهم »(٤) ، وهذا المصدر كان يعتمد عليه بعض اللغويين ولم يكن يرون ضيراً من أخذ اللغة والشعر عن هؤلاء الأعراب الوافدين من أعماق

---

(١) يقول السيوطى : « وهم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل فى الغريب وفى الإعراب والتصريف » (المزهر ١/١٢٨) .

(٢) المزهر ١-١٢٨ ، وأنظر ما ذكره ابن جنى فى الخصائص (١/٤٠٥) عن الأسباب التى جعلت العلماء يتحرجون من الأخذ عن سكان المدر .

(٣) كان هؤلاء الأعراب يفدون على العراق من تميم وكلب وكلاب وأسد حتى القرن الرابع وهناك مناقشات كثيرة دارت بين بعض العلماء وبينهم من هؤلاء ابن جنى .
(أنظر الخصائص ١/٣٨ ، ١/٧٥) ، (وأنظر ضحى الإسلام ٢/٢٥٢) .

(٤) المزهر ٢/٢٤٩ .
وأنظر ما ذكره أبو الطيب اللغوى عن هؤلاء الأعراب (صفحة ٤٠ من مراتب النحويين) .

البادية . بيد أن طائفة أخرى من اللغويين كانوا يرفضون الأخذ عن هؤلاء القوم ، لأنهم كانوا يشكون فى صدق أخبارهم أحيانا ، ويظنون أنهم ينتحلون ويصنعون حرصاً منهم على جمع أرزاقهم ، لذلك وضعوا لهم شروطاً ، كانوا يطبقونها على ناقل اللغة(١) ، حتى يمكن الأخذ عنه ، تماماً مثلما فعل العلماء مع ناقل الحديث ، كما كانوا يتحرون عن هؤلاء الأعراب ، وعن أصلهم وقبائلهم ، ويختبرونهم لمعرفة صحة لغتهم ، وصدق روايتهم ، ومدى أمانتهم ، حتى لقد كان الشغل الشاغل لعلماء اللغة — فى الكوفة والبصرة — كشف تزوير وحيل هؤلاء الأعراب (٢) . قال أبو عمرو بن العلاء(٣) : « لقيت أعرابياً بمكة فقلت : ممن أنت ؟ قال : أسدى ، قلت : ومن أيهم ؟ قال : نمرى ، قلت : من أى البلاد ؟ قال : من عمان ، قلت : فأنى لك هذه الفصاحة ؟ قال : أنا سكنا أرضاً لا نسمع فيها ناجخة انتيار ، قلت : صف أرضك .. قال : سيف أفيح ، وفضاء ضحضح ، وحبل صروح ، ورمل أصبح ، قلت : فما مالك ؟ قال : النخل ، قلت : فأين أنت عن الإبل ؟ قال : إن النخل حملها غذاء وسعفها ضياء ، وجذعها بناء ، وكربها صلاء ، وليفها رشاء ، وخوصها وعاء ، وقروها إناء ... » .

ومن المواقف الطريفة فى هذا المجال ، ما حكاه ابو زيد قال(٤) : قلت لأعرابى : ما المحبنطىء ؟ قال : المتكاكى . قلت : ما المتكاكى ؟ قال :

---

(١) اشترطوا فى ناقل اللغة أن يكون عدلا رجلا كان أو امرأة وقالوا : « فليتحر آخذ اللغة أهل الأمانة والصدق والثقة والعدالة » أنظر المزهر ١–٨٣ .

(٢) بلاشير : تاريخ الأدب العربى ١–١٣١ .

(٣) المزهر : ١–٩١ .

الناجخة : الصوت . التيار : الموج . السيف : شاطىء البحر
أفيح : واسع . الضحضح : الصحراء . الصروح : الصلب .
الرشاء : الحبل . الأصبح : الذى يعلو بياضه حمرة .
القرو : وعاء من جذع النخل ينبذ فيه .

(٤) المزهر : ١-٩٢ وكلها بمعنى القصير .

المتأزف ، قلت : ما المتأزف ؟ قال : أنت أحمق!! ». أضف إلى ما سبق، أن العلماء كانوا يستفسرون من هؤلاء الأعراب عما غمض من معانى الألفاظ ، ودلالاتها ، ولا يتحرجون من سؤالهم عما صادفهم من مشكلات لغوية(١) .

ومعنى هذا — أنه كانت هناك رحلتان تتيحان للغويين والرواة جمع مادتهم ، رحلة من الحاضرة إلى البادية كان يقوم بها العلماء واللغويون ، ورحلة من البادية إلى الحاضرة ، كان يقوم بها هؤلاء الأعراب المتنقلون ، وكلتا الرحلتين كانتا تمدان اللغويين والرواة بمادة ضخمة كبيرة ، هى هذه المادة الخام ، التى أخذوا فيما بعد يرتبونها ويصنفونها ، ويجرون عليها البحوث والدراسات المختلفة ، كل فى مجاله .

ومن الملاحظ — فى عملية الجمع هذه — أن هؤلاء العلماء واللغويين ، حين جمعوا مادتهم الغفل ، اعتبروا أن اللغة العربية وحدة واحدة بالرغم من اختلاف القبائل فى اللغات(٢) واللهجات ، والألفاظ والتراكيب ، فلم يحددوا لنا مسار رحلاتهم ، وبين أى من القبائل نزلوا وما هى حصيلة أخذهم عن كل قبيلة ، وماذا تختلف به قبيلة معينة عن شقيقتها ، كذلك لم يذكروا لنا حين رحل إليهم الأعراب البدو ماذا أخذوا عنهم من الألفاظ واللهجات ، ومن أى قبيلة كانوا ... حقيقة وصلت إلينا بعض الأخبار والروايات عن ذلك(٣) . ولكنها كانت قليلة ، لا تكاد تخدم البحث العلمى ، ولا تقدم شيئاً

---

(١) سئل أبو عمرو بن العلاء عن اشتقاق الخيل فلم يعرف ، فمر أعرابى محرم فأراد السائل سؤال الأعرابى فقال له أبو عمرو : دعنى فأنا ألطف بسؤاله وأعرف ، فسأله فقال الأعرابى : « استفاد الإسم من فعل السير » فلم يعرف من حضر ما أراد الأعرابى ، فسألوا أبا عمرو عن ذلك فقال : « ذهب إلى الخيلاء التى فى الخيل ، والعجب ، ألا تراها تمشى العرضنة خيلاء وتكبرا » .
(المزهر : ١—٢٠٦) .

(٢) أنظر ما ذكره ابن فارس فى فقه اللغة عن اختلاف لغات العرب ووجوهها ونقله عنه السيوطى فى المزهر : ١—١٥٢ .

(٣) ذكر الأزهرى أنه وقع فى الأسر وعاش مدة طويلة بين قبيلة هوزان حيث اختلط بهم أسرام من تميم وأسد يقول عنهم : « وهم قوم نشئوا فى البادية لا يكاد يقع فى منطقهم لحن أو خطأ فاحش » .
(أنظر مقدمة كتابه تهذيب اللغة ١-٧ ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط مصر ، سنة ١٩٦٤ م) .

للباحثين فى تطلعاتهم ودراساتهم . لو فعلوا ذلك لاستفدنا فوائد كثيرة ، فعرفنا كل ما يختص بالقبيلة من ألفاظها ولهجاتها ، وعرفنا المترادفات ومنشأها وعرفنا الألفاظ التى امتازت بها كل قبيلة ، وعرفنا سببها .. ولا ستنتج الباحث من ذلك أشياء قيمة جداً ، ولكنهم لم يفعلوا وساروا فى جمعهم على نظرية وحدة اللغة العربية بقطع النظر عن اختلاف القبائل(١) . ولقد كان واضحاً أن هناك اختلافاً بين لغات القبائل ولهجاتها ، وظهر هذا الاختلاف أول ما ظهر على ألسنة القراء(٢) فى قراءات القرآن ، حيث كان يتلى بلغات ولهجات تختلف باختلاف القبائل العربية(٣) وقد ظهر هذا التباين فى اللغات واللهجات أيضاً فى معاجم القبائل حيث كان لكل قبيلة معجمها الخاص الذى تستخدمه فى أساليب حياتها المختلفة حيث وضعت مسميات خاصة لكل ما تستخدمه وما يحيط بها من أشياء ، وتوارث القوم هذه المسميات ، وحافظوا عليها وكانت حصيلة هذا الاختلاف كثرة المترادفات فى العربية كثرة مفرطة ، قل أن توجد فى أى لغة أخرى(٤) .

---

(١) ضحى الإسلام : ٢-٢٥٢ .

(٢) ينسب بلاشير بداية البحث اللغوى فى مجال اللهجات واللغات إلى القراء مثل يحيى بن يعمر وأبى عمرو بن العلاء (تاريخ الأدب العربى : ١-١١٧) .

(٣) روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : نزل القرآن على سبع لغات منها خمس بلغة العجز من هوزان وهم الذين يقال عنهم « عليا هوازن » وهم خمس قبائل أو أربع ، منها سعد بن بكر ، وجشم بن بكر ، ونصر بن معاوية وثقيف » .
أنظر المزهر : ١-١٢٧ .

(٤) أنظر ما قاله أهل الأصول فى الأسباب التى أدت إلى وقوع الألفاظ المترادفة .
(المزهر ١-٤٠١) .

ولقد مرت عملية جمع اللغة فى مراحل ثلاث(١) :

الأولى : جمع الكلمات مثلما اتفق ، فالعالم يرحل إلى البادية يسمع كلمة فى المطر ويسمع كلمة فى اسم السيف ، وأخرى فى الزرع والنبات وغيرها فى وصف الفتى أو الشيخ إلى غير ذلك فيدون ذلك حسبما سمع من غير ترتيب إلا ترتيب السماع .

الثانية : جمع الكلمات المتعلقة بموضوع واحد فى موضع واحد ، والذى دعا إلى هذا فى اللغة أنهم رأوا كلمات متقاربة المعنى ، فأرادوا تحديد معانيها فدعاهم ذلك إلى جمعها فى موضع واحد ، وتوجت هذه المرحلة بكتب تؤلف فى الموضوع الواحد فألف أبو زيد كتاباً فى المطر وكتاباً فى اللبن ، وألف الأصمعى كتباً كثيرة كل كتاب فى موضوع .

الثالثة : وضع معجم يشمل كل الكلمات العربية على نمط خاص ليرجع إليه من أراد البحث عن معنى كلمة .

وقد كانت وسيلة القوم فى هذا الجمع هى السماع(٢) ، يخرجون إلى أعراب البادية ويمكثون الأعوام بين ظهرانيهم ، ويتابعون ركابهم أينما حلوا ، وحيثما ارتحلوا ، يؤاكلونهم ويشاربونهم ، ويخالطونهم ، ويسمعون منهم ويدونون ، وشهرة أبى العلاء والكسائى والشيبانى وغيرهم فى هذا العمل كبيرة. فلما انقضى الرعيل الأول من العلماء الجوالين وكانوا قد سجلوا ودونوا أبحاثهم

---

(١) ضحى الإسلام : ٢-٢٦٣ .

(٢) قال ابن فارس – فى فقه اللغة – تؤخذ اللغة سماعاً عن الرواة الثقات ، ذوى الصدق والأمانة ويتقى الظنون . (أنظر المزهر ١-٨٢ ، ومقدمة الأزهرى على تهذيب اللغة وكيف كان يأخذ عن القوم لغتهم ، وأنظر ما كتبه الأستاذ عباس حسن فى كتابه اللغة ـ النحو بين القديم والحديث صفحة ٥٨ ، طبعة دار المعارف سنة ١٩٦٦ م) .

وحصيلة مجهوداتهم ، تحولت هذه الحصيلة ، وهذا المجهود إلى مصادر يستقى منها الرعيل الثانى من العلماء . وجمع الجيل الثانى ما رواه أسلافهم من المصادر السابقة ، ودرسوه وتداولوه ، والتزموا به التزاماً شديداً ونرى أثر ذلك واضحاً فى كتب الأدب واللغة ، ودواوين الشعراء ، حيث نرى هذه العبارة المشهورة « سمعت فلاناً » أو « حدثنى فلان » أو « قال فلان » ، أو « قرأت على فلان » أو « أملى على فلان » .. إلى غير ذلك(١) . بهذه الطريقة انتقلت الحصيلة اللغوية من جيل إلى جيل ؛ حتى إذا مضينا إلى القرنين الثالث والرابع وجدنا أن كل العلوم قد دونت واستقرت ، ونرى العلماء فى هذه الفترة يأخذون عن كتب هذه الأجيال الرائدة ومصنفاتهم وقد حرص أغلبهم على ذكر ذلك صراحة بقوله « وجدت فى كتاب فلان » أو « قرأت فى كتاب فلان »

وبمرور الزمن كثر العلماء ، وتنوعت اهتماماتهم وتحددت تخصصاتهم ، وكثرت مصادرهم ، وصار كل جيل أوسع علماً وأكثر تحصيلا من الجيل الذى سبقه فكانت هذه الوفرة الوفيرة من المواد اللغوية والأدبية التى تفيض بها مجاميع اللغة والأدب المختلفة .

وهكذا كان العراق البيئة الثقافية والعلمية التى تولت القيام بالدراسات اللغوية على اختلاف ألوانها وأشكالها وتعدد مناحيها واتجاهاتها وكما قلت : سبقت البصرة الكوفة إلى مثل هذه الدراسات اللغوية .. فلماذا ؟ وهل قصرت الكوفة فى هذا الميدان ؟ وإذا كانت قد قصرت ، فما هى الأسباب التى أدت إلى هذا التقصير ؟ .. وإذا كانت لم تقصر فما السر وراء اتهام البصريين لها ؟ .

اختلف البصريون مع الكوفيين فى المنهج والطريقة ، فآثر البصريون التعمق فى النكات والدقائق النحوية ، بينما اتجه الكوفيون إلى واقع الاستعمال اللغوى والموجه عناية خاصة إلى فروق اللغة وتعبيرات أهل البادية فى أشعار الجاهلية ونحوها(٢) .

---

(١) أنظر فصل « معرفة طرق الأخذ والتحمل » فى المزهر ١-٨٧ وما بعدها .

(٢) بروكلمان : ٢-١٩٦ .

وتعصب كل فريق لمدرسته ، وأخذ يكيل التهم ويضعف علماء المدرسة الأخرى وخاصة ما فعله البصريون ، فهم يرون أن السبب فى تقدم مدرستهم على المدرسة الكوفية إنما يرجع إلى أنهم كانوا يأخذون اللغة كما يقول الرياشى ممثلهم(١) من مصادرها الأصلية ، من البادية العربية ، عن العرب الخلص « حرشة الضباب ، وأكلة اليرابيع الذين صحت سليقتهم اللغوية ، وخلصت لغتهم من كل الشوائب ، بينما كان الكوفيون يأخذون لغتهم عن أهل السواد وأصحاب الكواميخ وأكلة الشواريز »(٢) ، الذين خالطوا الأعاجم وساكنوهم فى الحواضر ، فاختلطت لغاتهم ، مما أدى إلى فساد سليقتهم العربية ، كما أنهم يتهمون علماء الكوفة — خاصة أستاذهم الكسائى — بأنه لقى أعراب الحطيمة فى سواد بغداد ، فأخذ عنهم الفساد من الخطأ واللحن ، فأفسد بذلك ما كان أخذ بالبصرة كله(٣) . ويعتد البصريون بأنفسهم وبعلمهم ، أيما اعتداد ، ويفخرون بأنهم لم يأخذوا عن الكوفيين فى هذا الميدان شيئاً وإنما كان الكوفيون هم أنفسهم الذين عنهم يأخذون ، قال أبو سعيد (٤) : « لا أعلم أحداً من علماء البصريين فى النحو واللغة ، أخذ عن أهل الكوفة شيئاً من علم العرب إلا أبا زيد ، فانه روى عن المفضل الضبى » . وقال أبو الطيب اللغوى : « وكذلك أهل الكوفة كلهم يأخذون عن البصريين ، ولكن أهل البصرة يمتنعون عنهم ، لأنهم لا يرون الأعراب الذين يحكون عنهم حجة »(٥) .

ويصور لنا أبو حاتم السجستانى — تلميذ الأصمعى — مبلغ تعصب البصريين فى هذا المجال ومدى ما جرت إليه المنافسة بين البصريين والكوفيين

---

(١) ابن النديم : الفهرست ٨٦ ، ص المطبعة الرحمانية سنة ١٣٤٨ هـ .

(٢) الكواميخ : نوع من الإدم . الشواريز : هو اللبن الرائب المستحرج ماؤه .

(٣) ياقوت : معجم الأدباء ١٣-١٩٠ مطبوعات دار المأمون بالقاهرة سنة ١٩٣٨ م .
والسيرافى : أخبار النحويين البصريين ، ط الحلبى ، سنة ١٣٧٤ هـ .

(٤) الفهرست ٨٩١ .

(٥) مراتب النحويين ٩٠ . تحقيق أبو الفضل ابراهيم ، ط نهضة مصر ، سنة ١٩٥٢ م .

من خصومات واتهامات بقوله(١) : « فاذا فسرت حروف القرآن المختلف فيها ، أو حكيت عن العرب شيئاً فانما أحكيه عن الثقات منهم ، مثل أبي زيد والأصمعي وأبي عبيدة ، ويونس ، وثقات من فصحاء الأعراب وحملة العلم ولا ألتفت إلى رواية الكسائي ، والأحمري ، والأموي ، والفراء ، ونحوهم وأعوذ بالله من شرهم » .

وقد بادلهم الكوفيون اتهاماً باتهام ، وخصومة بخصومة ، وادعاءاً بادعاء ، فابن الأعرابي كان يزعم أن الأصمعي وأبا عبيدة لا يحسنان قليلا ولا كثيراً ، ويقول أيضاً في كلمة رواها الأصمعي : « وسمعت من ألف أعرابي خلاف ما قاله الأصمعي »(٢) . والشواهد على ذلك كثيرة ، وكلها تعكس مدى ما قادت إليه هذه الخصومة والعصبية من تبادل الاتهام والتضعيف والطعن والتجريح .

ويبدو أن هذه الاتهامات التي كالتها مدرسة البصرة وعلماؤها ليست صحيحة وأنها لا تعدو أن تكون صورة من صور المنافسة العلمية بين المدرستين على نهج المنافسات السياسية والمذهبية والعصبية وصدى من أصداء التحدي القائم بين الفريقين المتعصبين ، ويكفي أن يرد هذا الاتهام ويدحضه أن الكثيرين من أئمة الكوفيين كالكسائي ، والشيباني قد رحلوا إلى البادية ، واستقوا من معينها ، وعايشوا الأعراب ، وأفنوا سنوات كثيرة من عمرهم في جمع الثروة اللغوية من أفواه أصحابها البدو الخلص .

إذن فلابد أن هناك سراً آخر وراء هذه الظاهرة .. ظاهرة اتهام البصريين للكوفيين ! . يفسره لنا الدكتور يوسف خليف فيقول(٣) : « إن السر في هذا يرجع إلى طبيعة الاختلاف في الشخصية العقلية بين الكوفة والبصرة ، فالعقلية

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩٠ .
المزهر : ٢-٢٥٦ .
(٢) معجم الأدباء ١٨-١٩٠ ، وانظر ما قاله ثعلب متعصباً لابن الأعرابي نزهة الألباء ٢٠٨
(٣) حياة الشعر في الكوفة ، ص ٢٧٤ .

الكوفية عقلية محافظة ، والعقلية البصرية عقلية مجددة ، وهذا يرجع بدوره إلى اختلاف البيئتين ، وما كان يسيطر عليهما من عوامل اجتماعية وثقافية وقد رأينا أن الكوفة سيطرت عليها الأرستقراطية البدوية ؛ وما كانت تتمسك به من تراث عربي ضخم ، ومن تقاليد بدوية موروثة ، وأن البصرة سيطرت عليها الجاليات الأجنبية المتعددة ، وما كانت تحمله إليها من ثقافات أجنبية وفلسفات ومن تقاليد أجنبية على المجتمع العربي ، ومن أنماط في الحياة والتفكير لم يكن للعرب عهد بها من قبل .. وليس من شك في أن هذا كله قد جعل العقلية البصرية تختلف اختلافاً كبيراً عن العقلية الكوفية المحافظة ومن هنا لم يكن من الغريب أن تظهر في البصرة الأعمال العلمية الضخمة بمعناها الدقيق ، ولعل مما يؤيد هذا ما يذكره بعض المستشرقين من أن الخليل تأثر في تأليفه لمعجمه « العين » بما كان يتبعه علماء النحو في اللغة السنسكريتية ، ولعل مما يؤيد هذا أيضاً أن الكوفيين اهتموا برواية الشعر والقديم منه بالذات ، لأنه يتفق مع طبيعة عقليتهم المحافظة ، كما في مفضليات الضبي ، وربما كان أهم عمل علمي منظم يستحق التنويه به ما قام به أبو عمرو الشيباني مع جمع شعر القبائل العربية كل قبيلة في كتاب مستقل وهو عمل يتفق تمام الاتفاق مع ما قلناه عن طبيعة العقلية الكوفية » .

على كل حال ، جمعت اللغة بيد أن ما جمع منها لم يكن كله على درجة واحدة من الثقة به ، وليس كله على درجة واحدة من الصحة ، ويرى بعض الباحثين(١) أن عملية جمع اللغة لم يكن موثوقاً بها تماماً ، بل تطرق إليها الشك أحياناً ، والفساد والخلل أحياناً أخرى ، من عدة جهات :

١ — « أن بعض علماء اللغة لم يكن ثقة فيما يرويه »(٢) .

---

(١) أحمد أمين : ضحى الإسلام ٢-٢٥٩ ، وانظر ما جاء في المزهر ١-٨٢ .

(٢) يقول الخليل : « إن النحارير ربما أدخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب إرادة اللبس والتعنيت » (النحارير : جمع نحرير وهو الحاذق الماهر العاقل المجرب المتقن الفطن البصير بكل شيء) المزهر : ١-٨٢ .

٢ ــ أن بعض العلماء أخذ اللغة عن الكتب والصحف ، وقد كانت الكتابة فى عصورها الأولى غير منقوطة ولا مشكولة ــ إلا القرآن ــ فدخل اللغة ما يسمى التصحيف .

٣ ــ عدم تحديد المعانى التى ينقلونها وذلك أن كثيراً من الكلمات كان ينقل سماعاً عن العرب ، وينهم السامع معانيها لا بالإشارة ولكن بالقرائن فيفهم سامع شيئاً ويفهم سامع ثان شيئاً آخر .

٤ ــ اعتمادهم فى أخذ مفردات اللغة أحياناً على أبيات نسبت إلى الجاهليين أو الإسلاميين زوراً .

٥ ــ تعرض اللغويين إلى أصل اللغات وبيان أنها أخذت من الفرس أو الروم أو نحوهما وكان علمهم بلغات من حولهم ناقصاً .

٦ ــ أضف إلى ذلك ما ذكره الأنبارى من أن الكلمات قسمان : متواترة وآحاد ، فاما المتواترة فلغة القرآن وما تواتر من السنة وكلام العرب ، وهذا قطعى يفيد العلم ، وأما الآحاد فما تفرد بنقله بعض أهل اللغة ولم يوجد فيه شرط التواتر(١) .

كل هذا أدخل الشك والارتياب فى اللغة فكان أن دفع بعض العلماء إلى البحث والتدقيق لمعرفة أصح اللغات وأفصحها وتحديد مواطنها وقبائلها ودراسة نطقها وخصائصها ومتابعة الظواهر التى تطرأ عليها ــ كالقلب والإبدال ، والاضداد وغير ذلك من الدراسات التى نشطت حول العربية ووسعت مجالاتها ورأينا صوراً لهذه الدراسات بين ثنايا الشروح .

---

(١) المزهر : ١ ٦٨ ــ ٦٩ .

المجال الثانى

تقعيد النحو

بعد أن جمعت اللغة نوعاً من الجمع ، نشط العلماء فى تنظيم مادتها وتهذيبها وتبويبها وكان نتيجة لمجهوداتهم هذه ، أن ظهرت البحوث والرسائل والمؤلفات والمصنفات ثم المعاجم اللغوية والمجموعات الشعرية التى جمعوا فيها ما وقع عليه اختيارهم من اللغة ومن الشعر القديم .

وجاء علماء النحو والصرف — وكانوا أيضاً علماء لغة وأدب — ومضوا يفلسفون اللغة اقتداءاً بما فعله الفقهاء فى آيات الأحكام من القرآن والأحاديث وفتاوى الصحابة والتابعين وأرادوا أن يضعوا للجزئيات كليات ، وأن يحددوا لما وصل إلى أيديهم من مادة أولية قواعد عامة وأصولا كلية (١) ، وبذلوا فى ذلك جهداً غريباً فى تتبع النصوص وأعمال الفكر واستخراج الأدلة ووضع القواعد وتنظيم البحث فيها .

وكان العراق — كما قلنا بما له من ماض حضارى وثقافى وبما انتشر فيه من موال وأعاجم وبما عرف فيه من ثقافات أجنبية متعددة — أصلح بيئة لمثل هذا البحث العقلى ، ففى العراق أو بتعبير أدق فى البصرة والكوفة (٢) بدأ بحث النحو ونما وتطور ثم استقر وأخذ صورته النهائية المنظمة الدقيقة التى نراه عليها الآن ، ولم تعرف الأمصار الإسلامية الأخرى ، أى محاولة واضحة المعالم لوضع قواعد النحو العربى أو البحث فى أصوله وعلله .

البصرة :

ومن المقرر الثابت لدى الباحثين أن البصرة كانت أسبق من الكوفة فى هذه المحاولات لوضع قواعد النحو العربى والبحث فى أصوله وعلله ، فهى

---

(١) ضحى الإسلام : ٢-٢٦٧ .

(٢) المزهر : ٢-٢٥٩ . قال السيوطى : « ولا علم للعرب إلا فى هاتين المدينتين » .

أول مدينة عنيت بالنحو واختراع قواعده ، منذ أن ظهر بها ابن أبي اسحق الحضرمي(١) (ت ١١٧ هـ) ثم تلميذ عيسى بن عمر(٢) (ت ١٤٩ هـ) اللذان يعدان أول نحاة البصرة الذين يطمئن إليهم الباحثون . « وقد سبقت البصرة الكوفة بنحو مائة عام حتى أتت الكوفة بعد تؤسس مذهباً خاصاً يضاهي مذهب البصرة وينازعه ويتعصب لكل علمائه »(٣) . ويعلل ابن النديم لتقديمه البصريين على الكوفيين بأنه إنما فعل ذلك لأن « علم العربية أخذ عن البصريين »(٤) ، وهو يقصد بعلم العربية تلك البحوث والدراسات التي كانت تتناول مسائل اللغة ومسائل النحو وغير ذلك . ومعنى هذا أن بحث النحو كان قد بدأ في البصرة وأخذ طريقه نحو النضج والاكتمال في الوقت الذي كانت فيه الكوفة تحاول البحث في هذا العلم . وبهذين العالمين البصريين اللذين يطمئن الباحثون إليهما بدأ البحث النحوي في البصرة . ومن المهم أن نلاحظ أن كليهما كان من الموالي(٥) ، وهذا طبيعي لأن هذا البحث في القواعد إنما نشأ عند الموالي ، اجتهاداً منهم وخدمة لأنفسهم ولم ينشأ عند العرب لأن العرب لم يكونوا بحاجة إلى وضع مثل هذه القواعد ، وإنما يعرفون لغتهم طبعاً وفطرة. وأما الموالي فهم بحكم أجنبيتهم كانوا يلحنون ويخطئون ، لذلك كانوا محتاجين إلى تعلم اللغة العربية تعلماً ، واكتساب أصولها وقواعدها عن طريق الدراسة

---

(١) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ص ٢٥ ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، مطبعة الخانجي ، سنة ١٩٥٤ م .

(٢) المرجع السابق : ١٥ ؛ نزهة الألباء : ٢٨ .

(٣) ضحى الإسلام : ٢-٢٨٣ .

(٤) الفهرست : ٩٦ .

ويقول ابن سلام : « وكان لأهل البصرة في العربية قدمة وبالنحو ولغات العرب والغريب عناية » . (طبقات فحول الشعراء ، ص ١٢ وتحقيق محمود شاكر ط دار المعارف بمصر ١٩٥٢ .

(٥) كان ابن أبي اسحق مولى آل الحضرمي وهم حلفاء بني عبد شمس (طبقات الزبيدي ٢٥) وكان عيسى بن عمر مولى خالد بن الوليد المخزومي (طبقات النحويين ٣٥) .

والممارسة . يقول السيوطى (١) : « أن أول ما اختل من كلام العرب وأحوج إلى التعلم الإعراب ، لأن اللحن ظهر فى كلام الموالى والمتعربين » .

إذن فظهور اللحن هو الباعث الحقيقى لوضع النحو وتقعيده ومن الطبيعى أن يكون الموالى أكثر المسلمين حاجة واهتماماً بمعرفة نحو لغتهم الجديدة ودراسته حتى يمكن التقرب من هؤلاء العرب الفاتحين المنتصرين . وسرعان ما أخذ البحث فى النحو — عندهم — يتسع ويتطوع ويتعمق ويتفرع ، وأخذت قواعد النحو تظهر ونتائجه تتطور ، وكل ذلك يشجع العلماء ويدفعهم دفعاً إلى محاولة استنتاج واستظهار قواعد أخرى وكلما وضعت قاعدة لفتت أنظارهم إلى شىء آخر يستخلصون منه قاعدة جديدة وكانت وسيلتهم فى كل ذلك « القياس »(٢) وقد استطاع البصريون به أن يضبطوا لغتهم ، فكان إذا تعرض لهم شىء لا يوافقه أولوه ، وإلا فهو شاذ لا يقيسون عليه(٣) .

ومعروف أن القياس مسألة تتعلق بالمنطق اليونانى ، وصل إلى المسلمين نتيجة لانتشار الثقافة اليونانية بالعراق ، نظراً لوجود السريان بينهم ، أولئك الذين كانوا واسطة نقل الثقافة اليونانية إلى اللغة العربية . ومعروف أيضاً أن القياس أصل من أصول الفقه الإسلامى ، لجأ إليه الفقهاء — خاصة فقهاء العراق (٤) — عندما حاولوا وضع قواعدهم الفقهية ، واستخلاصها من السنة النبوية الشريفة ، هذا القياس لم يجد النحويون ما يمنعهم من استخدامه ، كما استخدمه غيرهم ، والاستعانة به فى استكمال المادة اللغوية ، التى كانوا يتخذون منها وسيلة لأبحاثهم النحوية ، وقد سبقت البصرة غيرها فى الانتفاع بالمنطق ، لأن « تأثير المذاهب الفلسفية ظهر فى البصرة قبل ظهورها فى غيرها وكان بين نحاة البصرة كثير من الشيعة والمعتزلة ، الذين فسحوا السبيل للحكمة

---

(١) المزهر : ٢-٢٤٦ .

(٢) ضحى الإسلام ٢-٢٨٧ .

(٣) الدكتور أحمد كمال زكى : الحياة الأدبية فى البصرة ، صفحة ١٦٣ ط دار المعارف ، سنة ١٩٧١ م .

(٤) وهم شيوخ أبى حنيفة النعمان ، ثم أكمله أبو حنيفة ووسعه (ضحى الإسلام ٢-٢٧٥) .

الأجنبية ، لكى تؤثر فى مذاهبهم الكلامية »(١) . ولقد « سمى نحاة البصرة أهل المنطق ، تمييزاً لهم عن نحاة الكوفة »(٢) .

اعتمد نحاة البصرة على القياس ، فأخذوا يقيسون الأشباه على الأشباه ، ويقررون قواعدهم الأساسية التى يستخلصونها من الشواهد التى وصلتهم ، اعتماداً على هذا القياس ، فإذا ما وجدوا خروجاً على هذه القواعد قالوا انه شاذ لا يقاس عليه ، وهكذا « جعل نحاة البصرة للقياس شأناً كبيراً فى الأحكام المتعلقة بالنحو »(٣) فأصبح القياس عنصراً أساسياً من عناصر النحو العربى ، أدى إلى وضع الكثير من أصوله ، وتحديد العديد من معالمه .

بيد أن العلماء انقسموا فيما بينهم حول موضوع القياس ؛ فمنهم من حبذ استخدامه ، وشجع على ذلك ، ومنهم من رفضه وخذله . فكان ابن ابى اسحق قياساً(٤) ، وكذلك الخليل بن أحمد(٥) .

بينما كان الأصمعى — كشيوخ المحدثين — متشدداً واقفاً عند النص اللغوى يكره القياس ويعارضه (٦) .

وعلى كل حال فلقد فرض القياس وجوده على العلماء والباحثين ، يكملون به أوجه القصور والنقص فيما لم تسعفهم به اللغة ، ولم تأت به الرواية

---

(١) دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ، صفحة ٥٥ ، ترجمة الدكتور أبى ريدة ، طبع لجنة التأليف والنشر ، سنة ١٩٣٨ م .

(٢) المرجع السابق : ٣٨ .

(٣) المرجع نفسه : ٣٨ .

(٤) طبقات الزبيدى : ٢٥ (ويقول الأنبارى : وكان شديد التجريد للقياس) ، نزهة الألباء : ٢٢ .

(٥) يقول ابن جنى : « إنه سيد قومه وكاشف قناع القياس فى علمه » .
(الخصائص : ١-٣٦٦) .

(٦) يقول ابن جنى فى الخصائص (١-٣٦٦) : « إنه ليس ممن ينشط للقياس » . وانظر : ضحى الإسلام ٢ :-٢٧٨ .

عن الإعراب من مواطن اللغة ، فلم يكن فى رأى الكثيرين منهم مجال لإنكار هذا القياس(١) .

وظاهرة جديرة بالاهتمام — فى هذا المجال — ذلك أن العلماء الموالى ، حين استخدموا القياس فى أبحاثهم النحوية .. حاولوا إخضاع لغات العرب لقواعدهم التى توصلوا إليها ، وقوانينهم التى استنبطوها ، بل لقد أرادوا إلزام العرب بها ، وتشددوا فى تطبيقها ، ووصل بهم الأمر إلى مهاجمة كل من خرج على هذه القواعد والقوانين حتى لو كان عربياً صرفاً . ويحضرنا فى ذلك ، قصة تخطئة ابن أبى اسحق للفرزدق(٢) ، الشاعر العربى الفصيح حين مدح أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك بن مروان بقوله :

مستقبلين شمال الشام تضربُنا على زواحف تُزْجى مخُّها ريرِ

فقال له ابن أبى اسحق : أسأت .. موضعها رفع ، أى مُخُّها ريرُ ، وإن رفعت أقويت(٣) .

وألح الناس على الفرزدق فى ذلك ، فقلبها فقال :

على زواحف نزجيها محاسير

فلما أكثر ابن أبى اسحق على الفرزدق(٤) ، هجاه بقوله :

لو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مَوَالِيَا

والطريف فى ذلك أن ابن أبى اسحق خطأه أيضاً ، وقال : لحنت فى قولك « مولى موالِيا » وكان ينبغى أن تقول : « مولى موال .. » .

---

(١) قال المازنى : « ما قيس على كلام العرب فهو من كلامها » . المزهر : ١-٧١ ، وأنظر : ضحى الإسلام ٢-٢٨١ وما بعدها .

(٢) البغدادى : خزانة الأدب ١-٢٣٨ ، طبع دار الكاتب العربى ، سنة ١٩٦٧ م .

(٣) أقويت : من الأقواء ، والأقواء : عيب من عيوب الشعر « وهو رفع بيت وجر آخر » أنظر المرزبانى : الموشح ، صفحة ١٤ ، ط نهضة مصر ، سنة ١٩٧١ م .

(٤) انظر : طبقات الزبيدى ٢٦ ؛ نزهة الألباء ٢٤ .

كانت البصرة أسبق البيئات الثقافية إلى تقعيد النحو ، وكان من الأسباب التى هيأت لها هذا السبق : كثرة العناصر الأجنبية المقيمة بها ، والمترددة عليها نظراً لموقعها الجغرافى ، ومركزها التجارى ، كل ذلك أدى إلى الاهتمام بوضع قواعد النحو التى هيأت لهؤلاء الأجانب أن يتكلموا اللغة العربية ، وأن يستخدموها استخداماً سليماً ، وقد قطعت مدرسة البصرة فى ذلك شوطاً بعيداً ووصلت إلى ذروة عالية فى البحث النحوى عندما ظهر فيها الخليل بن أحمد (ت ١٧٠ هـ) الذى كان له الفضل الأكبر فى إنهاض الدراسات النحوية ، وتوسيع آفاقها . فى هذا الوقت ، كانت الكوفة ما تزال تحبو خلف أستاذها الأول أبى جعفر الرواسى(١) . وقد كان لفارق الزمن بين المدرستين أثره فى قلة عدد الباحثين من جهة ، وقلة مادة البحث من جهة أخرى . فمادة النحو التى درستها المدرسة الكوفية ، ووصلت فيها إلى نتائج كانت أقل من المادة البصرية ، وعدد علماء الكوفة الباحثين فى النحو ، كانوا أقل من عدد علماء البصرة ، وفى الحقيقة فإن مدرسة الكوفة إنما قامت على أساس مدرسة البصرة ومعظم علماء الكوفة ، تلقوا شيئاً من علمهم على علماء البصرة .

وفى أثناء القرن الثالث ، كان علماء المدرستين ، المدرسة البصرية والمدرسة الكوفية ، يفدون إلى بغداد ، بعد أن هدأت الأمور السياسية ، واستتب الأمن وأخذ الخلفاء والأمراء يشجعون العلماء ، ويدعونهم لتربية أولادهم ، فتسابق العلماء إلى بغداد(٢) ، وفى بغداد كانت تدور المناقشات وتقام المناظرات بين الفريقين ، وكان ذلك سبباً فى عرض المذهبين ، ثم نشأة الحوار بينهما ، والجدل حولهما ، ثم الانتخاب منهما ، وكان هذا يعمل عمله البطىء فى التقارب بين آراء المدرستين ، وقد ظل هذا التقارب والتفاعل مستمراً طوال هذا القرن ، حتى إذا ما هل القرن الرابع كان هذا التقارب قد وصل إلى مداه وتم المزج بين المدرستين ، إيذاناً بقيام مدرسة نحوية جديدة ، تقوم على المزج والتقريب بين المدرستين ، وهى المدرسة البغدادية . وقد اكتمل ظهور هذه

(١) حياة الشعر فى الكوفة ، ص ٢٦٣ .

(٢) ضحى الإسلام : ٢-٢٩٧ .

المدرسة واستقرت آراؤها فى القرن الرابع الهجرى ، وهذا المذهب الجديد ، الذى قام على أساس المزج بين المدرستين التليدتين هو المذهب الذى فرض سيطرته ، وبسط سلطانه على كثير من كتب النحو المتأخرة ، ففى هذه الكتب نرى صورة واضحة لهذا المزج والتوفيق بين آراء المدرستين البصريةوالكوفية. ولكن ليس معنى هذا أن آراء المدرستين القديمتين قد ضاعت ، أو تلاشت ، وإنما هذه الآراء عنى بها العلماء وسجلوها فى كتب خاصة بهم تعكس مذهبهم واتجاههم الفكرى(١) . ومن المهم أن نعرف أنه ظهر فى بغداد نحاة كثيرون ، ولكن بعضهم اعتنق المذهب البصرى ، بينما اعتنق بعض آخر المذهب الكوفى واعتنق بعض ثالث المذهب الجديد(٢) .

هذه صورة تاريخية سريعة لنشأة النحو فى البيئة العراقية ، تتبعناها خلال القرنين الثانى والثالث الهجريين ، وهما القرنان اللذان شهدا حدة الخلاف بين مدرستى البصرة والكوفة ، ثم فى القرن الرابع حيث استقر الوضع فى بغداد .

بقيت قضية هامة ...

ما معنى المدرسة النحوية ؟ .. وما هو مفهومها فى نظر الباحثين ؟ ..

المدرسة — فى اعتقادى — مذهب فنى خاص له سمات محددة ، قد تتفق أو تختلف مع سمات مذهب آخر ، هذا المذهب يرسمه ويحدده ويضع أصوله فرد معين ، تكون له المقدرة على إقناع أفراد آخرين به ، فيعتنقونه ، ويسيرون على هداه .

---

(١) مثلما فعل ابن الأنبارى فى كتابه « الإنصاف فى مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين» ففى هذا الكتاب نرى صورة واضحة لمدى اختلاف علماء المدرستين كما شهده القرن الثانى والثالث ، ونرى فيه أيضاً محاولة للترجيح بين كلا الرأيين عد فيه ابن الأنبارى المسائل التى تخالف فيها البصريون والكوفيون (أنظر : ضحى الإسلام ٢٩٧.٢) . وقد طبع هذا الكتاب بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، مطبعة حجازى ، سنة ١٩٥٣ م .

(٢) من هؤلاء العلماء ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) ، وأبو حنيفة الدينورى (٢٨٢ هـ) ، وابن السراج (٣١٦ هـ) ، والأخفش الصغير (٣١٦ هـ) ، ونفطويه (٣٢٣ هـ) ، وأبو على القالى (٣٥٦ هـ) .

والمدرسة — فى نظر بعض الباحثين (١) « ليست إلا أستاذاً مؤثراً وتلاميذ وقد اجتمعوا على تحقيق غرض معين ، ونهجوا للوصول إليه منهجاً موحداً » .

وقد اعترف القدماء بقيام مدارس نحوية فى مراكز العراق الثلاثة — سميت كل منها باسم المركز الثقافى الذى نشأت فيه ، فكانت أولى المدارس وأسبقها — كما ذكرنا — المدرسة البصرية ، ثم أعقبتها بنحو قرن من الزمان المدرسة الكوفية وأخيراً قامت المدرسة البغدادية .

فالزبيدى — يقسم النحويين — فى طبقاته — إلى بصريين وكوفيين — وإن كان يتجاهل البغداديين — ثم يضم إليهم المصريين والقرويين والأندلسيين(٢)

وابن النديم — يذكر البغداديين (٣) ، ويضعهم فى أعقاب البصريين والكوفيين . وهناك من المترجمين والمؤرخين(٤) من ينص صراحة ، حين يترجم للعلماء والأدباء على أن هذا العالم بصرى ، وذاك كوفى ، وفى هذا التحديد دلالة أيضاً على اعترافهم بوجود المدارس النحوية المختلفة ، وأن كل مدرسة تغاير الأخرى . وقد تابع الباحثون المحدثون — القدماء ، واقتنعوا بصحة هذه التقسيمات الإقليمية التى وضعوها ، واقتنعوا بالتالى بوجود مدارس نحوية قديمة متميزة ، من هؤلاء : الأستاذ أحمد أمين حيث يقول(٥) : « .. وأيا ما كان الأمر ، فقد اختلفت مدرسة الكوفة عن مدرسة البصرة فى مبادىء أساسية » .

والأستاذ الدكتور شوقى ضيف(٦) حيث تناول دراسة كل مدرسة على حدة ،

---

(١) الدكتور مهدى المخزومى : مدرسة الكوفة ، صفحة ١٢٩ ، دار المعرفة ، بغداد .
(٢) طبقات الزبيدى : ص ٢٣٣ ، ٢٤٥ ، ٢٧٥ .
(٣) الفهرست : صفحة ٣٩ وما بعدها .
(٤) مثل ابن الأنبارى ، وابن خلكان ، والسيوطى ، وياقوت وغيرهم .
(٥) ضحى الإسلام ، ٢-٢٩٤ .
(٦) المدارس النحوية ، طبع دار المعارف ، مصر سنة ١٩٦٨ م .

ناهجاً منهج الزبيدى فى طبقاته . والأستاذ الدكتور يوسف خليف(١) ، حيث تناول دراسة علماء كل مدرسة على حدة ، وتعقبهم تاريخياً ، ثم تحدث عن التقاء المدرستين فى بغداد .

وقد اقتنع بعض المستشرقين — كذلك — بفكرة المدارس الإقليمية ، التى حددها القدماء منهم بروكلمان حيث يقول : « وقد قسم علماء العربية مذاهب النحاة إلى ثلاث مدارس ، البصريون ، والكوفيون ، ومن مزجوا المذهبين من علماء بغداد .. »(٢) . كما رتب العلماء حسب أقاليمهم ، فترجم أولا لعلماء البصرة ثم لعلماء الكوفة ثم لعلماء بغداد .. ويقول يوهان فك(٣) : « وكان لعلماء البصرة مذاهب معتمدة فى القياس النحوى تختلف عن مذاهب الكوفيين » .

على أننا نجد بعض المستشرقين يتشككون فى قيام مدرسة كوفية أصلا ، وسلم برأيهم بعض الباحثين المحدثين ، فقالوا : « إننا لا نستطيع فى الحقيقة أن نقول بوجود مذهب مكتمل لنحاة الكوفة ، وهو أمر سبق أن بينه فايل(٤)

هذه هى نظرة القدماء والمحدثين إلى المدارس النحوية ، ونحن لا يسعنا إلا أن نسجل نتيجة لدراستنا فى هذا المجال — أن المدارس النحوية كانت حقيقة قائمة ، لا يمكن تجاهلها وإغفالها ، كان لكل مدرسة علماؤها وتلاميذها ولكل مؤيدوها ، المقتنعون بمنهجها ، ولكل مصنفاتها وأبحاثها ، ظهرت المدرسة البصرية أولا ، ثم ظهرت المدرسة الكوفية بعدها ، ثم امتزجت المدرستان واختلط المذهبان والمنهجان فى بغداد .

---

(١) حياة الشعر فى الكوفة ، صفحة ٢٤٢ .

(٢) تاريخ الأدب العربى ٢-١٢٤ .

(٣) العربية : صفحة ٦١ ، ترجمة المرحوم الدكتور عبد الحليم النجار ، طبع دار المعارف العربى بالقاهرة ، سنة ١٩٥١ م .

(٤) وهم مصنفو دائرة المعارف الإسلامية ٦-٢٠٠ (طبعة سنة ١٩٣٥ م (٤ وفايل هو مؤلف المقدمة المشهورة على كتاب الإنصاف فى مسائل الخلاف ، وقد ترجمها الدكتور عبد الحليم النجار ولكنها لا تزال مخطوطة .

فإذا كانت المدارس النحوية حقيقة واقعة ، فمن الذى أنشأها ؟ ومتى ؟ وكيف بدأت ؟ ثم ما هى الخصائص التى تميز كل مدرسة عن الأخرى ؟

قبل أجيب على هذه التساولات ، أود ألا نخوض غمار البحث عن أولية النحو العربى ، ومن الذى أنشأه ؟ ولماذا ؟ .. وكيف ؟ وبأى الأبواب بدأ ؟ فكل هذه الأمور لا تنتهى إلى نتيجة يقينية وقد تناولها كثير من القدماء والمحدثين (١) ، إنما الذى نود أن نسجله هنا هو قيام المدرسة النحوية بشكلها الحقيقى المتكامل ، الواضح القسمات ، المحدد المنهج والخصائص .

ففيما يتصل بمدرسة البصرة(٢) يكاد يجمع الباحثون على أن أول من نسبت إليه آراء نحوية فى كتب النحو هو « عبد الله بن أبى اسحق الحضرمى »(٣) فهم يقولون إنه كان أعلم أهل البصرة فى وقته ، وكانت له آراء واجتهادات ، ووضع رسالة فى الهمز ، تعد أول بحث فى المسائل النحوية ، كما استطاع أن يستغل القياس بمهارة فى أبحاثه(٤) ، أى أن الخطوة الأولى — وهى خطوة

---

(١) أنظر ما كتبه الزبيدى فى طبقاته ، وما كتبه السيرافى فى أخبار النحويين ، وما كتبه السيوطى عن العلماء فى النوع الرابع والأربعين من مزهره . ومن الدراسات الحديثة ، نشأة النحو للشيخ محمد طنطاوى ، صفحة ٩ وما بعدها (الطبعة الثانية سنة ١٩٦٩ م) والمدارس النحوية ، صفحة ١٧ وما بعدها ، ومن الرسائل الجامعية — مناهج البحث عند النحاة العرب للدكتور على محمد أبو المكارم ، صفحة ٣٠ وما بعدها — رسالة دكتوراه مخطوطة بجامعة القاهرة .

(٢) يرى مؤلف الصاحبى أن هذه المدرسة النحوية بدأت قبل أبى الأسود الدؤلى بكثير ، وأن النحو كان قديماً ، وأتت عليه الأيام . وقل فى أيدى الناس ، ثم جدده أبو الأسود . (أنظر الصاحبى فى فقه اللغة ، صفحة ١٠ ، طبعة المؤيد سنة ١٣٢٨) .

ويرى الزبيدى (صفحة ١٣) أن أبا الأسود هو مؤسس المدرسة البصرية .

(٣) من هؤلاء : أستاذنا الدكتور يوسف خليف فى كتابه حياة الشعر فى الكوفة ص ٢٦٣ . والأستاذ إبراهيم مصطفى فى محاضرات فى أصول النحو (أنظر مؤتمر المجمع اللغوى الدورة ١٦ ، صفحة ٢ (بينما يرى الدكتور تمام حسان أن المدرسة البصرية تبدأ بالخليل وسيبويه .. (أنظر مناهج البحث فى اللغة ، ص ٥٨ ، طبع الأنجلو ، سنة ١٩٥٥ م) .

ويرى الدكتور مهدى المخزومى أن تاريخ مدرسة البصرة يبدأ بعمل سيبويه (مدرسة الكوفة ، صفحة ٤٠٧) .

(٤) المزهر : ٢-٢٠٠ .

بدائية — كانت التأليف فى مسألة من المسائل الصغيرة ، ثم جاءت خطوة أكثر نضجاً ، وأشمل تأليفاً وهى جمع المسائل النحوية فى كتاب ، وقد قيل أن عيسى بن عمر الثقفى ، كان أول من فعل ذلك ، حيث صنف كتابين فى النحو سمى أولهما « الجامع » أى الذى يجمع مسائل النحو ، وسمى الثانى « الإكمال » أو « المكمل » ، ثم جاءت الخطوة الأخيرة ، فى مدرسة البصرة — وهى اختراع أصول النحو على يد « الخليل بن أحمد » الذى استطاع أن يحدد عناصر هذا الاختراع ، وأن يستنبط أصوله ، ثم ترك الخليل تدوين وتسجيل هذا الاختراع بكل أصوله وفصوله ، إلى تلميذه الأثير « سيبويه » حيث ظهر لنا النحو البصرى مدوناً فى صورة نهائية وواضحة فى كتابه .

أما فيما يتصل بالمدرسة الكوفية ، فقد اختلف فيمن أسسها ووضع قواعدها إلا أن أكثر العلماء متفقون على أن أبا جعفر الرواسى هو المؤسس الأول لهذه المدرسة(١) . ويرى بعض الباحثين (٢) أن الكسائى هو المؤسس الحقيقى للمدرسة الكوفية ، استناداً إلى أن الرواسى لم يخلف لنا كتباً أو رسائل فى النحو ، يستحق بها أن يكون مؤسساً لهذه المدرسة النحوية .

ولسنا الآن بصدد تفنيد الآراء ، لتأييد هذا أو ذاك ، بيد أننا نستطيع أن نقرر أن الرواسى هو واضع علم النحو الكوفى ، ومؤسس مدرستها فى القرن الثانى حيث كان معاصراً للخليل ، فى وقت كانت تموج فيه مراكز العراق المتعددة بمختلف أنواع الثقافات والعلوم.

ومهما يكن من أمر ، وسواءاً بدأت المدرسة الكوفية بالرواسى أم بدأت بالكسائى ، فإن الذى لا جدال فيه ، ان المدرسة الكوفية كانت حقيقة تاريخية وعلمية وكان لها علماؤها ومؤيدوها . كما كان لها منهجها الذى خالفت فيه منهج المدرسة البصرية .

---

(١) من هؤلاء السيوطى فى البغية ، ص ٣٤ ؛ والزبيدى فى طبقاته ، والأستاذ أحمد أمين فى ضحى الإسلام ٢٩٤.٢ ؛ والأستاذ الدكتور يوسف خليف فى حياة الشعر فى الكوفة ص ٢٤٨

(٢) مهدى المخزومى : مدرسة الكوفة ، ص ٤٠٧ ، طبع بغداد .

فإذا كان ذلك كذلك .. فما الفرق بين منهجي المدرستين البصرية والكوفية؟

وما هو الأصل العام الذي اختلفت فيه مدرسة الكوفة عن مدرسة البصرة؟

يرى الباحثون أن أهم سمةتوضح الفرق بين منهجي المدرستين الكوفية والبصرية ، إنما ترجع إلى الأصل العام ، الذي قام عليه بحث النحو عند كل من المدرستين .

فالأصل العام الذي قام عليه المذهب الكوفي هو احترام كل ما جاء عن العرب ، وجعله قاعدة يجوز القياس عليها ، حتى لو كان شاذاً ، لا تنطبق عليه القواعد العامة(١) . فالكوفيون كانوا « إذا سمعوا لفظاً في شعر أو نادر كلام جعلوه باباً أو فصلا »(٢) ، كما أنهم « لو سمعوا بيتاً واحداً فيه جواز شيء مخالف للأصول ، جعلوه أصلا وبوبوا عليه .. »(٣) .

أما الأصل العام الذي قام عليه المذهب البصري فهو إهدار الشواذ ، فاذا ثبتت صحتها ، قالوا : أنها تحفظ ولا يقاس عليها(٤) . ويقول السيوطي(٥) « اتفقوا على أن البصريين كانوا لا يلتفون إلى كل مسموع ، ولا يقيسون على الشاذ » ومعنى هذا أن البصريين كانوا أكثر حرية ، وأقوى عقلا ، وأن طريقتهم أكثر تنظيماً ، وأقوى سلطاناً على اللغة ، وأن الكوفيين أقل حرية ، وأشد احتراماً لما ورد عن العرب ولو موضوعاً .

فالبصريون يريدون أن ينشئوا لغة يسودها النظام والمنطق ، والكوفيون

---

(١) ضحى الإسلام : ٢-٢٩٥ .

(٢) السيوطي : همع الهوامع ١-٤٥ ، طبع القاهرة سنة ١٣٢٧ هـ .

(٣) السيوطي : الاقتراح ، صفحة ١٠٠ ، طبع حيدر أباد ، سنة ١٣١٠ هـ . ويقول عن الكسائي : « إنه كان يسمع الشاذ الذي لا يجوز إلا في الضرورة ، فيجعله أصلا ويقيس عليه » . (أنظر بغية الوعاة ، صفحة ٣٣٦ ، معجم الأدباء ، ج ٥ ، ص ١٩٠) .

(٤) ضحى الإسلام ٢-٢٩٦ .

(٥) الاقتراح ، ص ١٠٠ .

يريدون أن يضعوا قواعد للموجود حتى الشاذ ، من غير أن يهملوا شيئاً من الموضوع »(١) .

وهكذا نلاحظ أن المدرسة البصرية تختلف عن المدرسة الكوفية فى موقفها من النصوص التى وصلت إليها . فالبصريون لا يقبلون من هذه النصوص إلا ما أجمعت عليه لهجات العرب ، أما الشواذ فإنهم يهدرونها ، بل إنهم يجرؤون أحياناً على تخطئة العرب ، إذا ورد عنهم ما يخالف القواعد التى وضعوها ، وهم على أساس هذه النصوص المجمع عليها يقيمون قواعدهم ، ويقيسون عليها ، دون أن يكون للشواذ تأثير على قواعدهم العامة ، أما الكوفيون فيقبلون كل ما وصل إليهم من العرب ، ويحترمونه ولو كان شاذاً ويبيحون القياس عليه ، ولو خالف القواعد العامة التى وصلوا إليها ، بل يضعون لكل شاذ قاعدة يجوز القياس عليها ، ومن هنا اختلفت المدرستان فى المنهج اختلافاً أدى بهما إلى اختلاف فى النتيجة ، فكان النحو البصرى أكثر تنظيما ، وأدق قياساً من النحو الكوفى ، فى حين كان النحو الكوفى أشد تمثيلا للهجات العرب وأكثر تقديساً لكل ما ورد عنهم(٢) .

أى أن الكوفيين كانوا أسلس خطة من البصريين ، وأن هؤلاء كانوا أكثر تمحيصاً ، وبعبارة أخرى ، يمكن أن نرى أن الكوفيين كانوا نقلة ، وأن البصريين كانوا نقدة(٣) .

وخلاصة الموقف أن الكوفيين كانوا أكثر جرأة فى موقفهم ، وأكثر حرية فى منهجهم ، فى حين كان البصريون متقيدين متحفظين . وأن منهج

---

(١) ضحى الإسلام ٢-٢٩٦ .

(٢) حياة الشعر فى الكوفة ، ص ٢٦٧ .

وانظر ما كتبه الدكتور أحمد مكى الأنصارى عن خصائص المدرستين فى كتابه « أبو زكريا الفراء ومذهبه فى النحو واللغة » ، ص ٣٥٨ ، طبع المجلس الأعلى للفنون والآداب سنة ١٩٦٤ م

(٣) د. أحمد كمال زكى : الحياة الأدبية فى البصرة ، ص ١٧٧ ، طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧١ م .

البصريين بما فيه من ميل شديد إلى « التقعيد » كان أقرب إلى طريقة التعليم . ومذهب المعلمين المقننين ، فى حين أن منهج الكوفيين بكونه أقرب وأوقع إلى فهم طبيعة اللغة ، كان بذلك مذهب العلماء المحافظين ، وللحق فإن هذا المنهج الذى اتبعه الكوفيون ، كان موجوداً فى البصرة ذاتها مع وجود المنهج الثانى(١) وكانت هاتان النزعتان فى البصرة فى أيامها الأولى ، فهم يقولون أن ابن أبى اسحق الحضرمى ، وتلميذه عيسى بن عمر ، كانا أشد ميلا للقياس ، وكانا لا يأبهان بالشواذ ، وكانا لا يتحرجان ممن تخطئه العرب ، وكان أبو عمرو ابن العلاء وتلميذه يونس بن حبيب البصريان أيضاً على عكسهما ، يعظمان قول العرب ويتحرجان من تخطئتهم ، فغلبت النزعة الأولى على من أتى بعد من البصريين ، وغلبت النزعة الثانية على من أتى بعد من الكوفيين (٢).

ومع ذلك فليس معنى وجود المدارس المتميزة أن يكون بين كل مدرسة وأخرى حدود وفواصل مانعة ، بل هناك قدر مشترك بين الجميع ، وهذا الاشتراك لا يتنافى مع التميز والتشخيص(٣) .

أما عن الأسباب التى أثرت فى مذهب الكوفيين النحوى ، وحددت منهجهم وميزته عن مذهب البصريين ومنهجهم ، فيبررها الدكتور يوسف خليف بقوله(٤) : « إن الأرستقراطية العربية كانت مسيطرة على هذا المجتمع فترة طويلة ، وأن الحياة القبلية والعصبيات القبلية كانت مقوماً أساسياً من مقوماته ، وهذا — بطبيعة الحال — يجعل علماء الكوفة أشد حرصاً على التراث الأدبى واللغوى لهذه القبائل ، وأكثر احتراماً لكل ما يروى عنها ، وأشد إيماناً بأن كل ما نطقت به العرب صحيح وصالح لأن يستعمله الناس ، ويقيسوا عليه ولا يصح أبداً أن يعد ما نطقت به العرب شاذاً لا يقاس عليه ، كما لا يصح

---

(١) طبقات فحول الشعراء ، ص ٥ ١ .
(٢) ضحى الإسلام ٢-٢٩٦ .
(٣) أبو زكريا الفراء ص ٣٦٢ .
(٤) حياة الشعر فى الكوفة ، ص ٢٦٨ .

أن نخضعه لقواعدنا فما اتفق معها قبلناه ، وما استعصى عليها رفضناه ، أو عددناه شاذاً ، وهذا كله أثر من آثار سيطرة الروح العربى الأرستقراطي على المجتمع الكوفى . أما البصرة ، فقد كانت أخلاطا من الأجانب فلابد أن تكون القواعد التى توضع لهم ليتعلموا على أساسها العربية ، قواعد دقيقة لا تشعب فيها ، ولا تعدد ولا استطالة ، حتى لا يضلوا بينها ، ولا يستعصى عليهم حصرها . فإذا أضفنا إلى هذا أن الثقافات الأجنبية ، وبخاصة الثقافة الفلسفية ، كانت من الأسس التى قامت عليها حياة البصرة العقلية ، استطعنا أن ندرك السر فى اتجاه البصريين إلى إخضاع ما وصل إليهم من العرب لمقاييس العقل والمنطق والبحث الفلسفى » .

أما ثالث المدارس التى قامت فى البيئة العراقية ، فهى المدرسة البغدادية نسبة إلى بغداد ، التى ظهرت حوالى منتصف القرن الثانى الهجرى ، وقد قيل أنها مدينة ملك وليست بمدينة علم ، وما فيها من العلم منقول إليها ، مجلوب للخلفاء وأتباعهم(١) ، ولكنها استطاعت بحكم أنها حاضرة الدولة ، ومدينة الخلفاء والأمراء ، أن تجتذب العلماء والشعراء ، وأن تفرض وجودها على مدينتى البصرة والكوفة .

وقد اختلف فى حقيقة هذه المدرسة ...

فمن الباحثين من يرى أنها امتداد للمدرستين السابقتين ، وامتزاج للمذهبين ومنهم من يرى أنها مدرسة قائمة بذاتها استطاعت أن تكون لنفسها منهجاً وآراء ومن الباحثين من ينكر وجودها كلية ..

فبعض الباحثين يرى أن المذهب البغدادى ليس إلا مذهباً انتخابياً وسطاً يشمل الخصائص المنهجية للمدرستين البصرية والكوفية جميعاً(٢) يقول الأستاذ

---

(١) المزهر ٢ - ٢٦٠ .

(٢) أحمد أمين : ضحى الإسلام ٢-٢٩٨ ؛ والدكتور يوسف خليف : حياة الشعر فى الكوفة ، ص ٢٤١ ، والدكتور مهدى المخزومى : مدرسة الكوفة ، ص ٧٠ .

أحمد أمين(١) « وكان التقاء الكوفيين والبصريين فى بغداد سبباً فى عرض مذاهب المدرستين ، واتجاهاتهما ، ثم نقدها والانتخاب منها .. »

ويقول الأستاذ محمد الطنطاوى(٢)« أنه بالتئام عقد الفريقين فى بغداد ، نشأ المذهب البغدادى الذى عماده الترجيح بين الفريقين » .

وزعم الدكتور أحمد مكى الأنصارى : أن المدرسة البغدادية إنما نشأت عن امتزاج المدرستين تدريجياً حتى استوى أمرها ، وأن الفراء هو المؤسس الحقيقى لها(٣) .

وبعض آخر يرى أنه تخرج برجال الكوفة « جماعة من البغدادية ، أولعوا بالتوسع فى الروايات والتباهى فى الترخيصات ، والتفاخر بالنوادر والطرائف حتى ابتعدوا عن أصول أشياخهم ، واستوى لديهم مذهب انحاز عن مذهب أسلافهم عرف بمذهب البغداديين »(٤) .

وبعض ثالث ينكر كلية وجود هذه المدرسة ، ويقول : إن ما ذهب إليه بعض الباحثين من أن هناك مدرسة نحوية بإسم مدرسة بغداد ، متميزة عن المدرستين البصرية والكوفية ، لا يتفق مع ما كان يراه الأقدمون الأولون من أصحاب التراجم والطبقات ، ثم هو لا يتفق كذلك مع نصوص العلماء الأقدمين ، فابن النديم لا يسمى من خلطوا بين المذهبين بغداديين ، والزبيدى يذكر فى كتابه ، النحاة واللغويين من البصريين والكوفيين والمصريين والقرويين والأندلسيين ولا يزيد » .. ويستطرد بعد ذلك قائلا : « إذن فلم يكن هناك فيما أرى مدرسة بغدادية قائمة بنفسها لها تعاليمها »(٥) ، ويؤيده فى هذا الرأى

---

(١) ضحى الإسلام ٢٦٨.٢ .

(٢) نشأة النحو ، صفحة ٢٦ .

(٣) أبو زكريا الفراء ومذهبه فى اللغة والنحو ، ص ٣٦٣ .

(٤) الدكتور طه الراوى : نظرات فى اللغة والنحو ، ص ٩ ، طبعت بيروت سنة ١٩٦٢م

(٥) إسمعيل شلبى : أبو على الفارسى ، ص ٥٤٥ ، طبع مكتبة نهضة مصر ، وتابعه فى هذا الرأى الأستاذ أحمد حنفى فى رسالته « ثعلب ومنهجه فى النحو » ، ص ١٨ ، رسالة ماجستير مخطوطة بجامعة القاهرة .

الدكتور فاضل السامرائى فيقول (١) : « والذى أراه فى هذا الشأن أنه لايصح إطلاق اسم « مذهب » أو « مدرسة » إلا أن تكون هناك أسس مستقلة ، وآراء متميزة واضحة محددة ، وإلا فهو إما مذهب بصرى أو مذهب كوفى . وأرى أن المكان وحده لا يصح أن يسم المدرسة باسم ما ، فتعد مدرسة نحوية مستقلة .. وعلى هذا فأنا أرى أنه لا يثبت وجود مدرسة بغدادية ، إلا إذا ثبت أنها مدرسة مستقلة ، ذات أسس مستقلة ، وكيان خاص ، وآراء مستقلة ، وأن نحاتها يتصفون بهذه الصفات أيضاً ، وذلك لم يثبت عندى فيما بين يدى من المصادر .

هذا بعض ما قيل حول المدرسة البغدادية ، وأيا ما كان الأمر ، فإن المدرسة البغدادية إنما كانت حقيقة واقعة ، ظهرت نتيجة للتأثر والتأثير ، وبفعل التفاعل العلمى بين أنحائها وعلمائها بعد أن فرضت وجودها واجتذبت العلماء من كل مكان وفى كل فن ، وجمعت بينهم فى القصور والدواوين ، فكان أن نشأ المذهب البغدادى ، الذى قام على أساس الجمع والتوفيق ، والمزج بين آراء المدرستين ، بالإضافة إلى الاجتهادات التى استنبطها العلماء نتيجة للحاجة العلمية والثقافية .. هذا المذهب هو الذى فرض سيطرته وبسط سلطانه على كتب النحو المتأخرة التى بين أيدينا الآن .

---

(١) ابن جنى النحوى ، ص ٢٥١ وما بعدها ، طبع بغداد ، سنة ١٩٦٢ م .

المجال الثالث

رواية الأشعار والأخبار

إذا ما تركنا هذين المجالين — جمع اللغة ، وتقعيد النحو — وانتقلنا إلى المجال الثالث ، وهو مجال رواية الأشعار والأخبار وأيام العرب .. فإننا نستطيع أن نسجل تغيراً جوهرياً فى موطن هذا الفن . ونشأته وتطوره . فإذا كانت البصرة قد سبقت الكوفة وفاقتها فى مجال جمع اللغة وتدوينها ، وفى مجال النحو وتقعيده .. فإن الكوفة قد أثبتت وجودها فى هذا المجال ، واستطاعت أن تحرز قصب السبق . وتمسك بزمام هذا الفن ، وتتفوق فيه تفوقاً ملموساً ، اعترف به وقرره معظم العلماء والباحثين ، القدماء والمحدثين ... فقال أبو الطيب اللغوى(١) : « والشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة » . ومما ذكروه فى تعليل كثرة الشعر فى الكوفة — قصة اكتشاف الأشعار التى نسخت للنعمان فى الطنوج(٢) ، فقال ابن جنى بعد أن أورد القصة : « فمن ثم أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة » (٣) .

وقال ابن جنى أيضاً — فيما رواه عنه السيوطى — « الكوفيون علامون بأشعار العرب مطاعون عليها »(٤) .

ولقد أرجع الأستاذ يوسف خليف الأسباب التى من أجلها سبقت الكوفة البصرة فى مجال رواية الشعر والأخبار إلى عاملين : أحدهما جغرافى ، والثانى اجتماعى ، فقال(٥) : (إن الوضع الجغرافى للكوفة يجعلها أكثر اهتماماً برواية الشعر العربى ، وأخبار العرب من البصرة ، وأن الحياة الاجتماعية بها ، وما كانت تنطوى عليه من حياة قبلية وعصبيات تجعلها أشد حرصاً على تراث

---

(١) المزهر ٢-٢٥٤ .
(٢) الطنوج : الكراريس .
(٣) الخصائص ١-٣٩٢ .
(٤) الاقتراح ، ص ١٠٠ .
(٥) حياة الشعر فى الكوفة ، ص ٢٨٣ .

هذه القبائل بما فيه من شعر وأخبار ، وليس ببعيد أن يكون من بين القبائل من وجه اهتمامه إلى جمع أشعار قبيلته وتسجيلها فى صحف يحفظها عنده ، فقد كانت فكرة التدوين قد عرفت ، وكان أهل الكوفة على حظ غير قليل من الرقى العقلى الذى يجعلهم يفكرون فى مثل هذا العمل » .

كانت رواية الشعر من الأهمية بمكان فى حياة القدماء جميعاً ، وكانت تحظى بكثير من العناية لديهم ، لأن الشعر هو فهم الأول « وهو علمهم الذى لم يكن لهم علم أصح منه »(١) ، وهو منتهى حكمتهم ، به يأخذون وإليه يصيرون ، وهو العامل الذى يرضى نوازع نفوسهم ، ويطفىء ظمأهم ، ويهز مشاعرهم ، يتناقلونه ويتناشدونه فى المناسبات والحالات المختلفة ، لذلك شغفوا بروايته وحرصوا على حفظه ودراسته .

وإذا رجعنا إلى صدر القرن الأول .. ونظرنا فى أخبار الجاهليين ، ثم فى أخبار الرسول الأمين — صلى الله عليه وسلم — وفى أخبار خلفائه الراشدين وسائر صحابته — رضى الله عنهم أجمعين — وجدنا اهتماماً كبيراً برواية الشعر وإنشاده .. فقد كان الرسول يستنشد الشعر ، ويسائل صحابته عنه .

أنشد صلى الله عليه وسلم قول عنترة :

ولقد أبيتُ على الطوى وأظلُّهُ حتىَّ أنالَ به كريمَ المأكلِ

فقال : « ما وصف لى أعرابى قط فأحببت أن أراه إلا عنترة »(٢) .

كما كان الرسول الكريم — صلى الله عليه وسلم — يتمثل ببعض الشعر الجاهلى ، فقد كان إذا استراث الخبر ، يتمثل بعجز بيت طرفة :

ستبدِى لك الأيام ما كنتَ جاهلا ويأتيكَ بالأخبارِ من لم تزوِّدِ (٣)

(١) قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه (أنظر طبقات فحول الشعراء ، ص ٢٢) .

(٢) الأصفهانى : الأغانى ٨-٢٤٣ ، طبع دار الكتب المصرية ، سنة ١٩٦٣ م . وأنظر كذلك ٣ ٧ .

(٣) المبرد : الفاضل ، ص ٩ ، (طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٦٨ م ، وأنظر : الأغانى ٣-١١٧ .

وسئل الحسن البصرى (١) : أكان أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – يمزحون ؟

قال : نعم ويتقارضون .

وقال أبو سلمة (٢) : لم يكن أصحاب رسول الله – صلى الله تعالى عليه وآله وسلم – متحزقين ولا متماوتين ، كانوا يتناشدون الأشعار ويذكرون أمر جاهليتهم .

وكانت عائشة – أم المؤمنين – تحث على طلب الشعر وتعلم روايته ، ومما كانت تقوله فى ذلك : « رووا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم »(٣) .

وكان أبو بكر يحب الشعر ، يرويه وينشده متمثلا به فى كثير من مواقفه فقد رقى المنبر يوماً ، وقال فيما قال - يخاطب الأنصار (٤) : « فنحن وأنتم كما قال الغنوى :

جزَى الله عنا جعفراً حين أزلقت ... بنا نعلُنا فى الواطئين فزلَّتِ
أبَوْا أن يملُّونا ، ولو كانت أمُّنا ... تُلاقِى الذى يلقَوْنَ منا لملَّتِ
هم أسكنونا فى ظلالِ بيوتهم ... ظلالَ بيوتٍ أدفأَتْ وأكنَّتِ

أما عمر بن الخطاب .. فمشهود له بعلم الشعر وروايته ، كان يستنشد من حوله فى حله وترحاله ، قال يوماً لابن عباس : هل تروى لشاعر الشعراء ؟

قال ابن عباس ، فقلت : ومن هو ؟ قال : الذى يقول :

ولو أنَّ حمداً يخلِدُ النَّاسَ أخلِدوا ... ولكنَّ حَمْدَ الناسِ ليس بمُخلِدِ

قلت : ذاك زهير ، قال : فذاك شاعر الشعراء ، قلت : وبم كان شاعر الشعراء ؟ قال : لأنه كان لا يعاظل فى الكلام ، وكان يتجنب وحشى الشعر ،

---

(١) الزمخشرى : الفائق فى غريب الحديث ٢-٣٣٩ تحقيق على محمد البجاوى ومحمد أبوالفضل طبع عيسى الحلبى ، سنة ١٩٤٨ م .

(٢) المرجع السابق ١-٢٥٧ .

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٦-١٣٥ ، طبع مطبعة الاستقامة ، سنة ١٩١٠ م .

(٤) الصولى : أدب الكتاب ، ص ١٩٠ ، نشره محمد بهجة الأثرى ، بالقاهرة ١٣٤١ هـ .

ولم يمدح أحداً إلا بما فيه .. ثم قال : أنشدنى له ، قال ابن عباس : فأنشدته حتى برق الفجر » (١) .

وكان معاوية ابن أبى سفيان يحب الشعر أيضاً ، ويتمثل به ويستنشد من حوله ، التفت يوماً فى أحد مجالسه إلى عبد الله بن الزبير وقال متمثلا(٢) :

ورَامٍ بعُورانِ الكلام كأنهَا ... نوافرُ صبح نَفَّرتْهَا المراتعُ

وقد يدحضُ المرءُ المُوارِب بالخَنَا ... وقد تُدرِك المرءَ الكريمَ المصانعُ

ثم قال لابن الزبير : من يقول هذا ؟ فقال : ذو الأصبع ، فقال : أترويه ؟ قال : لا . فقال : مَنْ ها هنا يروى هذه الأبيات ؟ فقام رجل من قيس ، فقال : اروِيها يا أمير المؤمنين . فقال : أنشدنى ، فأنشده حتى أتى عليها .. فزاد معاوية فى عطائه .

ولم يكن القوم — فى القرن الأول الهجرى — يكتفون برواية الشعر الجاهلى وإنشاده فى مجالسهم ومحافلهم فحسب ، وإنما كانوا كذلك يعلمونه الصبيان تعليماً ، يتضح ذلك من قول عبد الملك بن مروان لمؤدب ولده (٣) : «روِّهم الشعر ، يمجدوا وينجدوا » . وقال(٤) : « أدبهم برواية شعر الأعشى فإن لكلامه عذوبة » . كما كان يقول لمجالسيه : « إذا أردتم الشعر الجيد فعليكم بالزرق من بنى قيس بن ثعلبة ، وهم رهط أعشى بكر ، وبأصحاب النخل من يثرب ، يريد الأوس والخزرج ، وأصحاب الشعف من هذيل »(٥) وتزخر المصادر العربية القديمة بالأخبار التى تصور مدى حرص الأمويين

---

(١) الأغانى : ١٠-٢٨٨ وأنظر ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١-٩٣ تحقيق أحمد محمد شاكر طبعة دار المعارف سنة ١٩٦٧ م ، وأنظر ما قاله ابن سلام عن بعض شيوخه : الجاحظ : البيان والتبيين ١-٢٤١ تحقيق عبد السلام هارون ، طبع القاهرة سنة ١٩٤٨ م .

(٢) الأغانى : ٣-١٠٠ — ١٠١ (دار الكتب المصرية) .

(٣) العقد الفريد ٦-١٢٥ .

(٤) القرشى : جمهرة أشعار العرب ، ص ٦٣ ، طبع بولاق سنة ١٣٠٨ ه .

(٥) المصدر السابق .

على الشعر القديم ، وعنايتهم بروايته ، وحبهم لمعرفة أخبار الجاهلية وأيامها .

قال الأصمعى(١) :

« .. كانوا ربما اختلفوا وهم بالشام فى بيت من الشعر أو خبر . أو يوم من أيام العرب ، فيُبْرِدُون فيه بريداً إلى العراق » .

وقال غيره(٢) : « كنا نرى فى كل يوم راكباً فى ناحية بنى أمية ، ينيخ على باب قتادة يسأله عن خبر أو نسب أو شعر ، وكان قتادة أجمع الناس»

هذا الاهتمام بالشعر وروايته انتقل تدريجياً من قلب الجزيرة العربية إلى الأمصار الإسلامية على اختلاف مسالكها ، وكان العراق من أكثر الأمصار اهتماماً برواية الأشعار والأخبار .

وذلك بحكم موضعه الجغرافى ، وبحكم العلاقات الاجتماعية القائمة بين العناصر المختلفة من سكانه ، فإذا عرفنا أن الكوفة كانت « مصر الأرستقراطية البدوية » ، وأن هذه الأرستقراطية البدوية ظلت مسيطرة على الحياة الاجتماعية فى الكوفة فترة طويلة من تاريخها ، وأن العصبيات القبلية لعبت دورها الكبير فى حياة المجتمع الكوفى ، استطعنا أن ندرك السر فى إهتمام الكوفة برواية الشعر والأخبار ، لأنها تراث هذه القبائل التى تعتز به ، وماضيها المجيد الذى تحرص عليه ، لأنه سجل مفاخرها وكتاب أمجادها(٣) .

تعددت البواعث لجمع الشعر والأخبار وأيام العرب .. فكانت هناك بواعث دينية ، وأخرى عاطفية ، وثالثة قومية . أما البواعث الدينية ، فكان أهمها اتصال الشعر بالقرآن الكريم ، فلكى يفسر العلماء الألفاظ والأحداث الواردة فى القرآن الكريم ، عمدوا إلى الشعر الجاهلى ، يقلبونه

---

(١) أبو أحمد العسكرى : شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ، ص ٤٥٥ ، تحقيق عبد العزيز أحمد ، طبع مصطفى الحلبى ، سنة ١٩٦٣ م .

(٢) المزهر ٢-٢١٠ (وهو قتادة بن دعامة السدوسى المتوفى سنة ١١٨ هـ) .

(٣) حياة الشعر فى الكوفة ، ص ٢٦٠ .

ويسائلونه ، ويلتمسون فيه إجابة لاستفساراتهم حول نصوص القرآن ، وفى ذلك يحضرنا ما روى عن عمر بن الخطاب وابن عباس(١) وغيرهما ، من حث على الاعتماد على الشعر الجاهلى ، وكلام العرب فى تفسير ألفاظ القرآن وفهم معانيه .

أما البواعث العاطفية فقد كان هناك ميل عاطفى ، وغيرة عربية على حفظ التراث وتسجيله ، حرصاً عليه وصوناً له ، خاصة بعد ظهور بوادر انقراض الآثار الشعرية ، نتيجة لعوامل الزمن ، وكثرة الحروب والفتن ، فقد روى الهيثم بن عدى قال : « لما مات جعفر بن المنصور الأكبر ، مشى المنصور فى جنازته من المدينة إلى مقابر قريش ، ومشى الناس أجمعون معه حتى دفنه ، ثم انصرف إلى قصره ، ثم أقبل على الربيع فقال : يا ربيع أنظر من فى أهلى ينشدنى :

أَمِنَ المنون وريْبها تتوجَّعُ

حتى أتسلى بها عن مصيبتى : قال الربيع : فخرجت إلى بنى هاشم ، وهم بأجمعهم حضور ، فسألتهم عنها ، فلم يكن فيهم أحد يحفظها ، فرجعت فأخبرته ، فقال : « والله لمصيبتى بأهل بيتى ألا يكون فيهم أحد يحفظ هذا لقلة رغبتهم فى الأدب ، لأشد على من مصيبتى بابنى ، ثم قال : أنظر فى القواد والعوام من الجند من يعرفها ، فإنى أحب أن أسمعها من إنسان ينشدها ، فخرجت فاعترضت الناس ، فلم أجد أحداً ينشدها إلا شيخاً كبيراً مؤدباً »(٢)

ولاشك أن هذا الخبر وغيره ، أشعر أهل العلم بواجب الإسراع إلى

---

(١) أنظر السيوطى : الإتقان فى علوم القرآن ، ١-١٤٨ — ١٦٤ ، طبع مطبعة حجازى بالقاهرة سنة ١٩٦٨ م ، وأنظر الفاضل ، ص ١٠ .

(٢) الأغانى : ٦-٢٧٢ — ٢٧٣ ، والقصيدة لأبى ذويب . وهو أحد الشعراء المخضرمين ممن أدرك الجاهلية والإسلام ، وأسلم فحسن إسلامه ، ومات فى غزاة أفريقية .
(أنظر : الأغانى ٦-٢٦٤) .

جمع آثار تراثهم التليد ، قبل أن ينقرض بانقراض رواته ، وتطويه عوامل الزمن .

أما البواعث القومية ، فتتجلى بوضوح فى ميل آخر أصيل ، يرتبط بما قبله ، ويرجع إلى الطبيعة العربية التى تتسم بالاعتزاز بالنفس وبالتاريخ ، وتستخدم الجدل لإثبات الحجة ، وإظهار نبوغ الجنس العربى على غيره من الأجناس الأجنبية ، فنجد أن خير معين لها على إظهار هذا الاعتزاز هو إنشاد الشعر ، والفخر بالأمجاد والأنساب . فالشعوب الداخلة فى الإسلام ، وبخاصة الفرس ، احتفظت بعد اعتناقها الإسلام بشعورها بعظمتها وتاريخها ، ولم يكن العرب الفاتحون باقل منهم شعوراً بعظمتهم الدينية والقومية ، فرجعوا إلى تراثهم فى الماضى يستمدون منه سر نبوغهم وتفوقهم ، ومن هنا بعث إلى الوجود — من جديد — الافتخار بماضى العرب التليد ، وتاريخهم المجيد ، وأثيرت النزعات القبلية ، مما عاد على التراث العربى بالقوة والامتداد .

وبالإضافة إلى هذه البواعث الدينية والعاطفية والقومية — كانت هناك بواعث أخرى لا تقل أهمية عنها ، فى مقدمتها « المتعة الفنية » سواء كانت متعة نفسية أو متعة ذهنية ، فالشعر وسيلة القوم وفنهم الخالد ، كانوا ينظرون إليه على أنه أعظم الرياضيات الذهنية ، وأرقى المسليات التى تتطلبها النفوس ، بما يشيع فيه من حديث عن أمجاد العرب وتاريخهم وتراثهم وأيامهم ، بالإضافة إلى ما فيه من حديث اللهو والخمر والصيد والوصف ، وبما يصحبه من الغناء والإيقاع ، وكثير من دواعى البهجة والسرور . هذا فوق ما فيه من متعة عقلية ترتبط بتتبع مظاهر الإجادة فى القصيدة من ناحية المعنى أو الصياغة أو الوزن ، كما ترتبط بالموازنة بين الشعراء النابهين فى محاسن الشعر وعيوبه . وقد كان العرب يذوقون جمال الكلام ، ويعرفون مواضع الإصابة ، ومواقع الخطأ وإن لم يرجعوا إلى قوانين تتلقى ، أو قواعد تتدارس وتتعلم ، ولكن قوة الفطرة ، وسلامة الطبع ، وذكاء القلب ، ورهافة الحس ، ودقة الملاحظة تهديهم كلها إلى استحسان ما يستحسن ، واستهجان ما يستهجن ، وقد كان فيهم حكام خبراء بفهم الكلام ونقده .

ومن البواعث الهامة لرواية الشعر « الرغبة فى تعلمه » ، وهى رغبة تقوم على المحاكاة والتقليد والتمرس بمعانى القدماء وألفاظهم ، أو قل بتتبع خصائصهم الفنية فى اللفظ والمعنى ، والوزن والقافية ، وأصول الصناعة الفنية ، حتى إذا تم استيعاب مذاهبهم وطريقتهم فى التعبير والنظم ، بان أثر ذلك كله فى شعرهم ووضح أثر محاكاتهم وتقليدهم .

ويتصل بهذا الباعث التعليمى باعث آخر لا يكاد ينفصل عنه ، ذلك أن رواة الأشعار والأخبار ، كانوا يقومون بما تقوم به دوائر أجهزة الإعلام فى عصرنا الحديث ، فكان الراوية يتنقل بين الأندية والأسواق والقبائل ، منشداً الأشعار ، حاكياً الأخبار .

وثمة باعث أخير هام — بل لعله أهم البواعث على الإطلاق ، خاصة فى القرن الثانى وما بعده — وهو « الباعث العلمى » الذى يتصل بسد الحاجة العلمية الخالصة ، التى شعرت بها الأمة حين تقدمت فى دراسة العلوم شيئاً ما واحتاجت إلى تنظيم البحث اللغوى ، ودراسة التاريخ ، على أسس من كلام العرب ، فحينئذ مست الحاجة إلى الرواية والاستقصاء فى جميع الأشعار لتلتمس فيها الشواهد على صحة ألفاظ اللغة . ولقد ذكرنا أن عرب البوادى أنفسهم حين شعروا بحاجة العلماء إلى بضاعتهم من اللغة والأشعار ، انتقلوا إلى الأمصار — البصرة والكوفة وبغداد — يحملون فى جعبتهم من أشعار القبائل المختلفة ما تطيب به أنفسهم ، وقد كان من أثر تلك الرواية أن وجد العلماء حاجتهم من الأشعار التى يستشهد بها فى التفسير ، وشرح الحديث ، وفى النحو واللغة والنقد والبلاغة ، ومن هنا وجدنا لعلماء الأنساب كابن الكلبى (٢٠٤ هـ) وعلماء الحيوان كالجاحظ (٢٥٥ هـ) ، وعلماء النبات كأبى حنيفة الدينورى (٢٨٢ هـ) ، وعلماء التاريخ كالطبرى (٣١٠ هـ) وعلماء الملل والنحل كالشهرستانى (٥٤٨ هـ) وكتاب التراجم والطبقات من مؤرخى الآداب كالأصفهانى (٣٥٦ هـ) . وعلماء النقد والبلاغة كالآمدى (٣٧٠ هـ) ، والجرجانى (٣٩٢ هـ) ، والعسكرى (٣٩٥ هـ) وجدنا لكل هؤلاء العلماء

تعلقاً بالشعر القديم ، يقرءونه ويتدارسونه لاستخراج الشواهد ، واستطلاع الحجج على مذاهب العرب فيما هم بسبيله من ضروب البحث والمعرفة .

طبقات الرواة :

اجتازت الرواية فى تاريخها الأول مرحلتين متميزتين ، حتى وصلت إلى ما هى عليه الآن فى كتب التراث :

١ – مرحلة حملها رواة هواة .

٢ – وأخرى حملها رواة محترفون .

فى المرحلة الأولى : كان الرواة – الهواة – يلازمون شاعراً بعينه ، يسمعون منه ، ويحفظون شعره(١) ، ويتتلمذون له ، ويحتذون فيما ينظمون نظمه ، إلى أن يستقيم لهم فنهم ، ويستطيعوا أن يصدروا عن موهبتهم الخاصة ، فهم يروون شعره ليس من أجل إذاعته فحسب ، بل من أجل أنفسهم أيضاً ، فالرواية عندهم تدريب وهواية ، وهؤلاء هم تلاميذ الشاعر وخاصته ، الذين يستقون من معين أستاذهم ، وهؤلاء يكونون فيما بينهم مدرسة شعرية متميزة(٢) ، وقد يكون من هؤلاء الرواة – الهواة – من يسمعون أكثر من شاعر ، ويحفظون لهم جميعا ، ويروون لهم جميعا فهم لا يخصون شاعراً بعينه يتتلمذون له ، وإنما يستقون روايتهم من الفن الشعرى ، من مناهل شتى ، ومنابع عدة ، ولا يتقيدون بمنهج ثابت ، أو مذهب محدد ، وهدفهم من ذلك اكتساب خبرة الشعراء جميعاً . وتمرين ملكتهم وتطويعها ، ثم يصدرون

---

(١) يقول بروكلمان (١-٦٥) وكان هؤلاء الرواة يعتمدون فى الغالب على الرواية الشفوية ولا يستخدمون الكتابة إلا نادراً .

بيد أن مرجليوث والدكتور طه حسين رفضا استعمال الكتابة فى شمال الجزيرة العربية قبل الإسلام بالكلية ، ورتبا على ذلك ما ذهبا إليه من أن جميع الأشعار المروية لشعراء جاهليين مصنوعة عليهم ومنحولة (أنظر ماكتبه الدكتور طه حسين فى الأدب الجاهلى ، طبع دار المعارف ، سنة ١٩٦٨ م) .

(٢) فى الأدب الجاهلى ، ص ٢٩٧ .

شعرهم ، وقد اكتملت لهم شخصيتهم وموهبتهم الفنية . ومعنى ذلك أن هؤلاء الرواة ، الحفظة الهواة ، كانوا تلاميذ فى مدارس الشعر قبل أن يكونوا شعراء وأنهم كانوا يتوسلون بالرواية للوصول إلى هدفهم ، يسمعون ويسجلون ، ثم يروون وينشدون ، وهم فى كل ذلك يتعلمون ، وأغلب هؤلاء الرواة . كانوا من بين أقرباء الشعراء أو من تلاميذهم المقربين إليهم ، فقد كان راوية زهير الحطيئة وابنه كعب ، وكان زهير نفسه راوية أوس بن حجر ، ووصل كثير من هؤلاء الرواة إلى مرتبة كبيرة فى عالم الشعر ، بل صاروا من فحول الشعراء كالحطيئة راوية آل زهير ، وهدبة بن خشرم راوية الحطيئة ، وجميل راوية هدبة ، وكثير راوية جميل ، والسائب بن الحكم السدوسى راوية كثير ، وذو الرمة راوية الراعى ... وهكذا . وهذا ما دعى بعض النقاد الأقدمين إلى تقسيم الشعراء الأول إلى طبقات أربعة وجعلوا الطبقة الأولى المقدمة على سائر الطبقات هى طبقة الشعراء الفحول ، وميزوهم بأنهم « الشعراء الرواة »(١) .

وكما كان هناك رواة للشاعر ، كان هناك أيضاً رواة للقبيلة ، وكانت مهمتهم أشبه بمهمة « المتحدث الرسمى » باسم القبيلة ، منوط إليهم لقاء الناس فى المحافل والأسواق ، ناشرين أمجادها ومفاخرها ، وأيامها ومآثرها ، هم حفظة شعرها ، وصونة تراثها ، حيث يذوب الشاعر فى قبيلته ، وينسب الشعر إلى القبيلة ، ويظهر على الملأ منسوباً إليها(٢) ، فرواة القبيلة هم المصدر الأساسى والمعتمد من القبيلة ، لذلك حرص العلماء — حين ساحوا فى البيداء لجمع

---

(١) ابن رشيق : العمدة فى صناعة الشعر ونقده ، ١-٧٣ ، طبعة مطبعة السعادة سنة ١٩٠٧ م والبيان والتبيين ، ٢-٩ .

(٢) كانوا يطلقون على ديوان القبيلة « أشعار بنى فلان » ، أو « شعر بنى فلان » ، ذكر الآمدى فى مواطن مختلفة شعر فزارة (ص ٥٩) ، وشعر بنى يشكر (ص ٤٠) ، وشعر بنى عقيل (ص ١٢٨) . أنظر المؤتلف والمختلف ، تحقيق عبد الستار فراج ، طبع عيسى الحلبى ، سنة ١٩٦١ م .

الشعر والأخبار — على تسجيل شعر القبائل من أفواه هؤلاء الرواة ؛ وصنيع أبي عمرو الشيباني في هذا المجال معروف(١) ، وكذلك السكرى ، فقد ذكر له ابن النديم قرابة ثلاثين ديوانا من دواوين القبائل التي جمعها ، ثم كان لبعض فحول الشعراء رواة مختصون ، أو قل « ملحقون معتمدون » يقومون بمهمة « السكرتير الخاص » متفرغون لهم ، يصحبونهم في حلهم وترحالهم ، مهمتهم حفظ شعرهم وتدوينه ، ثم روايته وإذاعته في مختلف المحالات ، يوضحون مناسباته ومراميه ، ويفسرون ما غمض من معانيه ، أو يردون عما يثار حول شاعرهم من تساؤلات ، مثلما كان يفعل عبيد(٢) ، ويحيى ابن متى(٣) رواة الأعشى .

أما المرحلة الثانية — فنقصد بها الرواية العلمية المتخصصة ، التي حملها رواة حرفتهم الرواية ، وهم الرواة العلماء .. ونقصد بهم تلك الطبقة الخاصة المتميزة التي اتخذت من الشعر موضوعا علمياً ، تدرسه وتحلله ، وتأخذه عن شيخ أو أستاذ . في مدرسة من مدارس علم الشعر وروايته ، حيث يجتمع فيها التلاميذ مع العلماء ، ويتحلقون حول شيخ مشهور له بالحفظ والرواية ، ومعرفة كلام العرب ، والإحاطة الواسطة بشعرهم ، والمقدرة الفنية على تحقيقه وإثبات صادقه من منحوله ، وذلك بالاطلاع على ما سبق عصره من جهود الرواة في حفظ الشعر وتدوينه . هذه الطبقة من الرواة العلماء ، وبهذا التعريف والتحديد ، يبدو أنها لم تكن موجودة قبل مطلع القرن الثاني الهجرى(٤) .

ويمكن القول أن من رواد هؤلاء العلماء ، الذين سبقوا إلى الاهتمام بهذا

---

(١) القفطي : إنباه الرواه على إنباه النحاه ، ١-٢٢١ ، طبعة دار الكتب ، سنة ١٩٥٠ م والفهرست ص ١٠١ .

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ١-٢١٥ .

(٣) الأغاني : ٩-١١٢ .

(٤) ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي ، ص ٢٥٩ ، طبع دار المعارف ، ١٩٦٢

الفن ، ومهدوا الطريق لمن تبعهم عالمين : أبا عمرو بن العلاء البصرى(١) (ت ١٥٤ هـ) ، وحمادا الراوية الكوفى(٢) (ت ١٥٦ هـ) ثم أخذ عن هذين العالمين جل من نعرف من العلماء الرواة . وقد انتمى هؤلاء العلماء إلى مدارس إقليمية فكانت ثمة مدرسة البصرة ، ومدرسة الكوفة ، ومدرسة بغداد ، وكان تلاميذ كل مدرسة يتعصبون لمدرستهم ولأساتذتهم ، يوثقون رواياتهم ، ويجرحون شيوخ المدرسة الأخرى ، ويضعفون رواياتهم ، وقد يتهمونهم بالوضع والنحل والكذب .

ومعنى هذا — أن الرواية — منذ الهواية إلى الاحتراف — مرت بطورين هامين ، تطورت فيهما تطوراً جوهريا ، واكتسبت خصائص وسمات جديدة

الطور الأول : يتصل برواية الشعر وحده(٣) ، ولا يعنى إلا مجرد حفظه وتنقله وإنشاده ، ولا يتجاوز ذلك إلى ضبطه أو تحقيقه أو تمحيصه ، وامتدت حياة هذا الطور حتى نهاية القرن الأول وبداية الثانى .

أما الطور الثانى : فقد انتقلت فيه الرواية إلى حد أرقى ، وهو ما يصح أن نطلق عليه طور الرواية العلمية ، وعلى أعلامه : « الرواة العلماء » . وفى هذا الطور كانت الرواية تقوم على الحفظ والنقل والإنشاد ، تماماً كالرواية المجردة فى طورها الأول ، وأضيف إليها الضبط والإتقان ، والتحقيق ، والتمحيص ، وقد يضاف إليها شىء من التفسير ، وبعض الإسناد ، وبعض

---

(١) بلغت عناية أبى عمرو بن العلاء بالشعر الجاهلى مبلغاً كبيراً — قال الأصمعى : « جلست إلى أبى عمرو بن العلاء عشر حجج ما سمعته يحتج ببيت إسلامى » .
(البيان والتبيين ١-٣٢١ ، المزهر ٢-٣٠٤) .

(٢) يقول ابن سلام : « وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية » .
(أنظر طبقات فحول الشعراء ، ص ٤٠) .

(٣) قال محمد بن المكندر التيمى (ت ١٣٠ هـ) : « ما كنا ندعو الرواية إلا رواية الشعر »
(ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ٢-٤٧ ، طبع المطبعة المنيرية سنة ١٣٤٦ هـ) .

التصحيح والتقويم(١) لنتاج الشاعر ، وهذا الطور من أطوار الرواية هو الذى قامت فيه مجالس العلم والدرس ، حيث صارت لهذه المجالس والمدارس شيوخ علماء يتصدرون ، وتلاميذ يستمعون ويسجلون .. ويبدو أن هذا الطور الأخير هو الذى قام بتوصيل كل التراث الشعرى والأخبارى إلينا ، ودعامة هذا الطور : السماع من الشيوخ ، والقراءة من الكتب(٢) .

ومن المهم أن نعرف — أن رواة الطور الثانى — الرواة العلماء ، الذى كانوا يعيشون فى البيئة العراقية ، نزحوا إلى البادية ، وأخذوا الشعر من أفواه الأعراب ، وعايشوهم فى حلهم وترحالهم(٣) ، كما اعتمد بعضهم على من كان يلقاه من الأعراب فى الحواضر ، واعتمد الخلف على السلف ، اعتمد علماء الجيل الثانى على علماء الجيل الأول ، واعتمد علماء الجيل الثالث على ما وصل إليهم من علماء الجيلين الأول والثانى فرووا عنهم ونقلوا روايتهم ، فالأصمعى جلس إلى أبى عمرو عشر حجج(٤) ، وسمع عنه وروى عنه(٥) ، ويونس أخذ عن أبى عمرو(٦) ، وكذلك خلف (٧) ، وأبو عبيدة أخذ عن يونس(٨) ، كما أخذ خلف والكسائى ، وخلف معلم الأصمعى (٩) ، وسمع خلف من

---

(١) كان الرواة أحياناً يصلحون شعر الشاعر ويقومونه ، أنظر ما فعلوه فى تقويم شعر امرىء القيس : الموشح ص ٨٥ ، ٩٥ ، ٢٨ .

(٢) مصادر الشعر الجاهلى ، ص ١٩٨ .

(٣) قال الأصمعى : « كنت أغشى بيوت الأعراب أكتب عنهم كثيراً حتى ألفونى وعرفوا مرادى » . (المزهر ٢-١٩٥) .

(٤) البيان والتبيين : ١-٢٢١ .

(٥) طبقات الزبيدى ص ٣١ .

(٦) نزهة الألباء ، ص ٣٠ .

(٧) المزهر ، ج ٢ ، ص ٢٥١ .

(٨) المزهر ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ .

(٩) نزهة الألباء ، ص ٧٠ .

حماد(١) ، وأخذ أيضاً عن عيسى بن عمر ، وعن أبي عمرو بن العلاء(٢) وأخذ أبو زيد وابن الأعرابي عن المفضل(٣) ، وهكذا اعتمد بعضهم على بعض ، وأخذ اللاحقون عن السابقين ، فاتصلت رواية الجاهلية ، أشعارها وأخبارها ، ولم تنقطع ، بل لقد اتصلت في زمن الرسول وصحابته ، وخلفائه الراشدين ، واستمرت طوال القرن الأول حتى تسلمها الرواة العلماء ، من رجال القرن الثاني ، تلقفوها ممن تقدمهم ، وورثوها عمن سبقهم ، رواية متصلة ، ثم سلموها إلى من تبعهم مرتبة منقحة ، ممحصة موثقة .

واعتمد جل الرواة الأول — في مبدأ الأمر — على الذاكرة والحفظ(٤) ، فكانوا يتناشدون الأشعار ويملونها دون الرجوع إلى مصدر مكتوب ؛ ولهم في كتب الأدب نوادر جمة فيها كثير من المبالغات .. فحماد مثلا روى للوليد ألفين وتسعمائة قصيدة للجاهليين (٥) ، وكان في استطاعته أن يروي سبعمائة قصيدة أول كل منها « بانت سعاد »(٦) ، وقيل إن خلفا الأحمر كان يحفظ أربعين ألف بيت شاهد في النحو ، وقيل : إن علم لغة ابني نزار ومن كان من بني قحطان على لغة ابني نزار كان بين جوانحه بمعانيها(٧) ، ويروى

(١) قالوا : « كان خلف أول من أحدث السماع بالبصرة ، وذلك أنه جاء إلى حماد الراوية فسمع منه » . نزهة الألباء ، ص ٧٠ .

(٢) المزهر ، ج ٢ ، ص ٢٥١ .

(٣) المزهر ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ .

(٤) يقول بلاشير في هذا الصدد : « لقد ضاعت في الرواية الشفهية كميات هائلة من المقطوعات الشعرية ، والقصائد والأخبار ، حتى أن الأوساط العلمية العراقية في أواخر القرن الثاني للهجرة اعترفت بوجود كمية ضئيلة من الشعر الجاهلي » . (تاريخ الأدب العربي ١-١٤٠) .

وقال أبو عمرو بن العلاء : « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير » (المزهر ٢-٢٩٤) .

(٥) الأغاني ، ج ٦ ، ص ٧١ .

(٦) الأغاني ، ج ٦ ، ص ٩٣ .

(٧) طبقات الزبيدي ، ص ١٧٩ .

أن الأصمعي كان يقول : « أحفظ اثني عشر ألف ارجوزة ، فقيل له : منها البيت والبيتان ؟ فقال : ومنها المائة والمائتان(١) . ويذكر الرواة أن الفراء أملى كتبه التي تبلغ ثلاثة آلاف ورقة حفظاً ، ولم يأخذ بيده نسخة إلا في كتابين مقدارهما خمسون ورقة(٢) . وكذلك ابن الأعرابي : كان يملي على الناس من حفظه ، ويقال عنه أنه ما رؤي في يده كتاب قط(٣) ، على أن بعض هؤلاء العلماء ، لم يكن يكتفي بالسماع والحفظ ، والرواية الشفوية ، ولكنه كان يدون ويسجل ، فقد كان أبو عمرو الشيباني يخرج إلى البادية ، ومعه الورق والمداد فيدون ما يسمعه(٤) ، وقد قيل إنه جمع أشعار نيف وثمانين قبيلة ، فكان كلما عمل شعر قبيلة وأخرجه إلى الناس كتب مصحفا وجعله في مسجد الكوفة ، حتى كتب نيفا وثمانين مصحفا بخطه(٥) . ومعنى ذلك بوضوح : « أن الرواية الشفهية كانت تسير جنبا إلى جنب مع الكتابة والتدوين لا تعارض بينهما ، ولا ينفي وجود أحدهما وجود الآخر » (٦) .

وغلب على هؤلاء الرواة العلماء نوع معين من الاهتمامات التصنيفية — فمنهم من اهتم بدواوين فحول الشعراء . مثل حماد(٧) ، وخلف ، والأصمعي وابن الأعرابي ، ومنهم من وجه اهتمامه إلى دواوين القبائل ، وأفرد لكل قبيلة مجموعاً خاصا ، كأبي عمرو الشيباني وأبي عبيدة والمفضل الضبي وأبي تمام(٨) .

---

(١) المزهر ، ج ٢ ، ٢٥٢ .

(٢) نزهة الألباء ، ص ١٣٥ .

(٣) نزهة الألباء ، ص ٢١١ .

(٤) أنباه الرواة ، ج ١ ، ص ٢٢٤ (قال ثعلب : كان عند أبي عمر الشيباني ما يحتاج إليه وما لا يحتاج إليه لكثرة ما طلب وجمع) .

(٥) أنباه الرواة ، ج ١ ، ص ٢٢١ .

(٦) مصادر الشعر الجاهلي ، ص ١٩٤ .

(٧) قال الأصمعي : « كل شيء في أيدينا من شعر امرىء القيس فهو عن حماد الراوية ، إلا شيئاً سمعناه من أبي عمرو بن العلاء » (أنظر المزهر : ج ٢ ، ص ٢٥٣) .

(٨) اهتم أبو تمام بأشعار القبائل وصنف في صنف من سلسلة اختياراته « مختار أشعار القبائل » (بروكلمان ، ج ٢ ، ص ٧٦) .

ومنهم من اختار قصائد لطائفة من الشعراء النابهين ، فحماد جمع المعلقات ، والمفضل جمع المفضليات ، والأصمعى صنف الأصمعيات ، وكذلك فعل أبو تمام(١) ، ومنهم من اهتم بفن واحد وتتبع خطاه ، كأبى عبيدة حين جمع أشعار النقائض(٢) ، وكابن قتيبة حين جمع الأشعار التى قيلت فى الخمر والميسر (٣) . وأخيراً ومع بداية القرن الثالث ، ظهرت ظاهرة جديدة عند القوم ، تلك هى نشأة المجموعات والاختيارات الشعرية(٤) ، التى لا يروى فيها ديوان شاعر بعينه ، ولا قبيلة بعينها ، وإنما يختار فيها من الشعر على اختلاف أبوابه وموضوعاته مقطعات صغيرة ، لتيسير المحاضرة والحديث على المثقفين والمؤدبين الذين يتصلون بالملوك والأمراء والوزراء وأصحاب المكانة ، كالمقطعات التى جمعها أبو تمام والبحترى فى حماساتهما ثم تابعهما الخالديان ، وابن الشجرى وغيرهما .

وقد كان لعلماء الرواية قواعد خاصة التزموا بها ، وساروا على هديها فى جمع الشعر وروايته ، فهم جدوا فى فحص الشعر الجاهلى ودراسته ، وتمحيصه وتوثيقه ، ولم يقبلوا منه إلا ما ثبتت صحته ، ولم يرووا منه إلا ما اطمأنوا إلى سلامته من الوضع والنحل ، وكان حرصهم شديداً ، فى تحديد مصادرهم ، لذلك كانوا يتحرون(٥) جيداً عن مخبريهم من الأعراب وغيرهم وكان حرصهم أشد عند أخذهم من الرواة الشعراء الذين قد يدخلون شعرهم

---

(١) لأبى تمام مصنف أسماه « فحول الشعراء » جمع فيه أشعاراً لشعراء جاهليين وإسلاميين. (بروكلمان ، ج ٢ ، ص ٧٦) .

(٢) خزانة الأدب ، جزء ١ ، ص ١٠ ، ٣٤ ، ٦٤ ، ١٩٧ ، كما صنف أيضاً كتاب أيام العرب (بروكلمان ج ٢ ، ١٤٤) .

(٣) نشره محمد كرد على فى دمشق سنة ١٩٤٧ ، وأسماه « كتاب الأشربة » .

(٤) ربط بروكلمان بين ظهور هذه المجموعات ونزعة التجديد فى الشعر على عهد العباسيين . (أنظر تاريخ الأدب العربى ، ج ١ ، ص ٧٧) .

(٥) طبقات فحول الشعراء ، ص ٤٠ .

الذاتى(١) بين ثنايا القصائد والمقطعات التى يروونها لآبائهم أو لقبائلهم ، أو لشعراء من ذويهم ، فكانوا يتحرزون من الأخذ من هؤلاء الرواة وقد بلغ هؤلاء الرواة العلماء من التثبت والتحقيق ، والتمحيص والتدقيق ، ومن المقدرة على تمييز المنحول ، والنص على الموضوع ، ما جعل بعض العلماء يفضلونهم على رواة الحديث . قال يحيى بن سعيد القطان(٢) : « رواة الشعر أعقل من رواة الحديث ، لأن رواة الحديث يروون مصنوعا كثيراً ، ورواة الشعر ساعة ينشدون المصنوع ينتقدونه ، ويقولون هذا مصنوع » .

كما تواضعوا على مقاييس محددة ، التزموا بها ، وطبقوها فى نقد الشعر ، وتمييز صحيحه من منحوله ، أول هذه المقاييس : الإجماع ، أى إجماع الرواة على صحة نسبة الشعر إلى قائليه .

قال ابن سلام(٣) : « .. أما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج منه » .

وثانيها : وجود الشعر فى ديوان الشاعر ، فقد دون هذه الدواوين علماء ثقات ، ولذلك قبلوا ما جاء فيها فى صورة اليقين والقطع ، أما ما ذكره هؤلاء العلماء أنفسهم فى تلك الدواوين على أنه مشكوك فيه ، فقد قبلوا أن ينقلوه كما هو ذاكرين ألفاظهم .. وقد كانوا يبيحون لأنفسهم أحياناً النظر فيه وبحثه عسى أن يصلوا إلى شىء يوضح غوامض أمره .

وثالث هذه المقاييس : خبرتهم وثقافتهم ومعرفتهم بمذاهب الشعراء ، وخصائصهم الفنية ، وطرائقهم فى التعبير : فما ثبتت صحته ، وصدقت أحداثه وروايته ، وتطابقت أوصافه مع شعر الشاعر دون طعن من أحد أثبتوه ،

---

(١) هذا ما لاحظه خلف الأحمر على ولد الأغلب العجلى قال : كان ولده يزيدون فى شعره حتى أفسدوه (الموشح ، ص ٢١٣) وهذا ما لاحظه أبو عبيدة على ولد متمم بن نويره . (أنظر المزهر ، ١-١٠٦) .

(٢) المزهر ١-١٠٦ .

(٣) طبقات فحول الشعراء ٦ .

وقد يكون الإجماع أيضاً على رفض الشعر الموضوع فيقول : « وليس لأحد إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شىء منه ، أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفى » .

اتفق بعض إحساسهم ، وعمق بصيرتهم ، وما وجدوه غير ذلك رفضوه ، يسعفهم فى ذلك سعة محفوظهم ، وذوقهم الخاص ، وحاستهم الفنية بغلبة هذا اللون من الشعر على شاعر معين(١) .

بيد أنهم لم يكونوا يستخدمون هذا المقياس وحده(٢) ، وإنما كانوا يدعمونه ويقوونه بأحد المقياسين السابقين ، فإذا ما اقتنع العلماء بالنص ، نتيجة لاستخدامهم هذه المقاييس أو بعضها ، اطمأنوا إلى ما يروون ، وثبت عندهم صحته ، نصوا على ذلك صراحة ، من مثل قول أبى عبيدة بعد أن أورد شعراً جاهليا : « إنه الشعر الثابت الذى لا يرد »(٣) ، واستشهاد الجاحظ على صحة أخباره : « بالشاهد الصدوق »(٤) و« بالأشعار الصحيحة »(٥) .

وثمة ظاهرة واضحة فى رواية دواوين الشعراء والقبائل ، ذلك أن الراوية — خاصة من علماء الطبقة الثانية أو الثالثة — حين يروى ديوان شاعر ، إنما يرويه عن راويتين أو أكثر من علماء الطبقة الأولى ، فيورد قصائد الديوان التى انعقد على صحتها الإجماع أولا ، ثم يضم إليها قصائد أخرى رواها أحد الرواة وحده ، ولم يروها غيره ، أو ينص على أن تلك القصيدة قد تنسب إلى شاعر معين ، وهو غير صاحب الديوان ، وقد يجمع الراوية أبياتاً متفرقة أو مقطعات صغيرة تحت عنوان : « المنحول من شعر فلان » ، بيد أنه يقصد بهذا المنحول ما لم يروه الرواة العلماء الذين رووا ديوان الشاعر .

---

(١) الأمثلة على ذلك كثيرة فى كتب الأدب والمجموعات الشعرية منها ما نسب مثلا من الشعر لكعب بن زهير ولكنهم قالوا أنه لزهير نفسه (راجع مقدمة ديوان زهير ص ١٥ — ١٨) ، وأنظر على سبيل المثال : شرح ديوان زهير ، ص ٣٦٨ .

(٢) مصادر الشعر الجاهلى ، ص ٤٦٨ .

(٣) نقائض جرير والفرزدق ، ص ٢٣٨ نشرها بيفان ، طبع ليدن ، سنة ١٩٠٧ م .

(٤) البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٤ .

(٥) الحيوان ، ج ٢ ، ص ١٠٧ تحقيق عبد السلام هارون ، طبع الحلبى سنة ١٩٦٨ م .
وأنظر ج ٢ ، ص ٢٢٠ .

هذا هو منهج الرواة العلماء فى رواياتهم للأشعار والأخبار ، وهذه هى مقاييسهم فى التحقيق والتمحيص ، غير أن منهجهم فى التحرى والاستقصاء شابه بعض القصور ، فلم تستطع جهودهم المبذولة ، ولا المقاييس المتواضع عليها أن تمنع الشوائب إلى ما وصل إلى أيديهم من الشعر نتيجة لعوامل عدة : منها ما له علاقة بالرجال ، وخلقهم ، وبيئاتهم ، فقد كان هؤلاء العلماء مولعين ، وبدرجات متفاوتة بالغريب ، ولا شك فى أن مخبريهم الأعراب قد فطنوا إلى هذا الهوس فجربوا أن يتملقوهم من هذه الناحية(١) . ومنها استرسال العلماء أحيانا كثيرة — عند رواية الأشعار والأخبار — مع الخيال وحب الغرائب(٢) .

خلاف أيضاً .....

ولقد تحدثنا من قبل عن الأسس التى قام عليها الخلاف بين البصريين والكوفيين فى مجال اللغة والنحو ، فإذا نظرنا إلى الطابع الفكرى المتميز ، الذى تفردت به كل مدرسة من المدرستين فى مجال رواية الشعر والأخبار ، وجدنا أن الخلاف القائم ، والذى أشرنا إليه فى مجالى اللغة والنحو ، كان قائما كذلك فى رواية الشعر ، فعلماء الكوفة قبلوا بسهولة فائقة كل المواد التى حملها الأعراب ، احتراما منهم لكل ما وصل إليهم من تراث العرب . فكانوا بذلك محافظين ، أما علماء البصرة ، فكانوا أكثر تشدداً وتقييدا ،

---

(١) بلاشير : تاريخ الأدب العربى ١–١٣٣ ، وقال السيوطى (المزهر ١–١٠٩) « سمعت اللاحقى يقول : سألنى سيبويه هل تحفظ للعرب شاهداً على أعمال فعل ؟ قال : فوضعت له هذا البيت :

حَذِرَ أموراً لاتُضير وآمن ما ليس مُنْجيه من الأقدار

وهذا ما جعل الخليل ينعى على العلماء قلة الوجدان (المزهر ، ج ١ ، ص ١٠٤) .

(٢) وهذا ما جعل الأصفهانى يعتبر أن قصة المجنون وليلى لا أساس لها فى التاريخ ، وإنما هى من ابتداع الوضاعين فى القرن الثانى للهجرة ، كما قبل صاحب الأغانى أسطورة ملك اليمن على الرغم من قوله أنها من وضع يزيد بن المفرج (أنظر الأغانى ، ج ١٧ ، ص ٥٢ ؛ بلاشير ١٣٤)

فرفضوا أخذ أو رواية ما وصل إليهم عن هذا السبيل ، محددين خطاً ثابتا التزموا به وهو : ألا يقبلوا من الشعر إلا ما عليه إجماع ثقات الرواة ، فكانوا بذلك متحفظين ، ومن هنا كان الكوفيون أكثر حرية وأشد جرأة ، وأوسع مصادر من البصريين ، وبالتالى كانت رواياتهم أكثر ، والشعر بين أيديهم أغزر وأوفر ، فاتهمهم البصريون بالتزيد والوضع .

يقول ابن سلام(١) وهو بصرى : « وأسمعنى بعض أهل الكوفة شعرا رغم أنه أخذه عن خالد بن كلثوم يرثى به حاجب بن زرارة ، فقلت له : كيف يروى خالد مثل هذا وهو من أهل العلم ، وهذا شعر متداع خبيث ؟ فقال : أخذناه من الثقات ، ونحن لا نعرف هذا ولا نقبله .

ويقول الثورى(٢) : « اتكل أهل الكوفة على حماد وجناد ففسدت رواياتهم من رجلين ، كانا يرويان ولا يدريان ، كثرت رواياتهما ، وقل علمهما » . فإذا أضفنا إلى ذلك ما ذكره أبو الطيب اللغوى عن كثرة الشعر بالكوفة(٣) ، وما ذكره ابن جنى فى تعليل كثرة رواية الشعر فيها(٤) ، أدركنا مدى تضعيف البصريين للكوفيين وتجريحهم بالوضع والنحل .

ولكننا نحب أن نقرر — أن اتهام البصريين للكوفيين بوضع الشعر ونحله ، لم يكن مرده كله إلى أن الكوفيين كانوا يضعون وينحلون حقاً — وإنما مرد بعضه إلى العصبية الإقليمية والعلمية ، وما سببته هذه من منافسات وخصومات ثم كان مرد بعضه الآخر إلى اختلاف مصادرهم فى الرواية ، وإلى اختلاف منهجيهما ، حيث حافظ الكوفيون ، وتحفظ البصريون . وأخيرا فالظاهر — أن ظاهرة الكذب والوضع فى الرواية ، كانت منتشرة فى هذا العصر ؛

---

(١) طبقات فحول الشعراء ص ١٢٣ ، وأنظر حديثه عن الأسود بن يعفر الصفحة نفسها .

(٢) معجم الأدباء ، ج ٧ ، ص ٢٠٧ .

(٣) يقول « والشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة ، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله ، وذلك بين فى دواوينهم » (المزهر ، ج ٢ ، ص ٢٥٤) .

(٤) الخصائص ، ج ١ ، ص ٣٩٤ .

وأن مجموعة من العوامل ساعدت على ذلك ، حتى أصبحت هذه الظاهرة بدعا من بدع العصر ، يلجأ إليه الرواة ، ويتسابقون فيه تظرفا(١) وعلى العموم ، فلم تكن البصرة بمعزل عن الكوفة ، أو كانت الكوفة مزورة عن البصرة ، فقد كانت هناك رحلات متبادلة بين المصرين ، أو قل « بعثات ثقافية » وكان سيلها لا ينقطع . ومن هنا كان « التبادل الثقافى والعقلى » بينهما ، وما يترتب عليه من تأثر وتأثير مستمراً ، فلا يكاد يظهر مذهب من المذاهب العقلية ، أو فكرة من الأفكار العلمية ، أو ظاهرة من الظواهر الأدبية فى إحدى المدينتين ، حتى يرن صداه فى المدينة الأخرى ، وكانت النتيجة الطبيعية لهذا أن كثرت المنافسات العلمية ، والخصومات العقلية بينهما(٢) إلى أن اختلطتا وامتزجتا فى مدرسة بغداد ، فأخذت الفروق تضمحل ، وأخذ العلماء يدرسون مسائل الخلاف بين المدرستين والمنهجين على أنها مسائل تاريخية(٣) .

وخلاصة ما يمكن أن نقوله فى موضوع الرواية ، أنه منذ مطلع القرن الثانى أو بعده بقليل ، قامت طائفة من العلماء الرواة ، من أمثال أبى عمرو ابن العلاء ، وحماد الراوية ، ثم خلف والمفضل ، وهم الجيل الأول من العلماء الذين عرفتهم العربية فى تاريخها الحافل ، فتلقوا تراث الجاهلية : شعرها وأخبارها وأنسابها ، وصل إليهم بعضه مدونا فى دواوين كاملة ضمت تراث القبيلة كله ، أو شعر شاعر فرد من شعرائها ، ووصل إليهم بعضه

---

(١) ضحى الإسلام ، ج ٢ ، ص ٣١٥ .

ويقول الأستاذ أحمد أمين : إن الكوفيين كانوا أكثر صلة بالأمراء والخلفاء ببغداد ، وهذا جعل تزاحم الكوفيين على الأبواب أشد ، وجعلهم يتخيرون ما يحسن فى السمر والمنادمة ، ويتزيدون فيما يعجب ، وبخاصة ما ليس فى التزيد فيه حرج كبير : كالحكايات والقصص عن الأعراب » (أنظر (٢-٣١١) .

(٢) حياة الشعر فى الكوفة ، ص ٢٤٠ .

(٣) ضحى الإسلام ٢-٢١٢ .

مكتوبا فى صحف متفرقة(١) ، ثم وصل إليهم بعضه عن طريق الرواية الشفهية التى أورثها السلف للخلف ، فحملوا الأمانة ، وصانوا التراث ، ومضوا ينظمون ما تجمع لديهم ، يضيفون إليه ما محصوه ، وما ثبت لهم صحته ، وينفون عنه ما ثبت لديهم وضعه وفساده ، ولم يدخروا جهدا فى التثبت والتحقق ، حتى استقام لكل منهم ما تيقن صحته ، فمضى يذيعه على تلاميذته بخرجه لهم فى حلقات درسه ، ويشيعه فى رواد مجالس علمه ، فخلف من بعدهم خلف ، هم الطبقة الثانية من العلماء الرواة ، الذين تأسوا بهم ، وساروا فى مواكبهم مقتفين سبلهم ، يجمعون ويدرسون ، ويفصحون ويمحصون ، إلى أن يستقيم لكل منهم ما يتيقن صحته ، فيذيعه بالتالى على تلاميذه من علماء الطبقة الثالثة .. وقد كان لكل من هولاء منهج فى الأخذ والتلقى ، قد يتفق وقد يختلف مع غيره ، ولكن هذا الخلاف فى المنهج لم يمنع العلماء من أن يأخذ بعضهم عن بعض ، ومن أن يرحل علماء المصر إلى المصر الآخر ، ليأخذوا منهم ، وليرووا عنهم ، ثم ينقلوا ما تيقنوا صحته إلى تلاميذهم ، ويدونوه فيما يصنعون من دواوين ، حتى إذا ما وصلنا إلى أواخر القرن الثالث الهجرى ، وأوائل القرن الرابع ، وجدنا أن الأمصار الإسلامية الأخرى — غير العراقية — تشارك فى هذه المجهودات العلمية على اختلاف علومها واتجاهاتها كل حسب طاقته ، وعدد علمائه ، وإن كان المنبع الأول ، والمصدر الأصلى لهم هو البيئة العراقية — فكل ما تدول فى الأقطار الإسلامية الأخرى فى المشرق أو فى المغرب — إنما أصله البيئة العراقية ، منقول عن علمائها .

وبعد .. فهذه صورة لمجالات الحياة اللغوية التى ولدت ونشأت ونمت فى البيئة العراقية ، حاولت رسمها لصلتها الوثيقة بحركة الشروح .. فهذه البيئة العلمية هى نفسها التى أنتجت الشروح ، وهذه الحركات العلمية هى التى

---

(١) مصادر الشعر الجاهلى ، ص ٤٧٧ .

احتضنت الشروح ، وهذه المجالات اللغوية هى التى ساعدت فى دفع حركة الشروح .

فلننتقل الآن إلى دراسة الحاجة الثقافية التى أوجدت ظاهرة الشروح ، ثم نتتبع شروح الشعر الجاهلى منذ ولادتها ثم فى نموها وتطورها عبر القرون الخمسة التى حددناها فى بحثنا .